في الاتجاه المعاكس
في الاشتراكية-الديمقراطية الروسية

يا عمال العالم، اتحدوا

طريق البلشفيّة

موقع أممي للإعلام البلشفي باليسار العربي

لينين

اتجاه القهقرى

في الاشتراكية-الديمقراطية الروسية

ترجمة

محمد علي العربي

النشر البلشفي العربي

القيروان، نوفمبر 2020

المصدر المعتمد في هذه الترجمة

A Retrograde Trend in Russian Social-Democracy,
LCW, 4:255-285, 4th ed.

نشرت هيئة تحرير جريدة «فكر العمال» ملحقا منفصلا (سبتمبر 1899)، قصد "تبديد كامل سوء الفهم وعدم الوضوح القائمان فيما يتعلق باتجاه جريدة «فكر العمال» (مثل 'تخلينا عن السياسة')". (من هيئة التحرير).

ونحن سعداء للغاية لأن جريدة «فكر العمال» أثارت أخيرا قضايا برنامجية سعت حتى الآن إلى تجاهلها. لكننا لم نقبل بشدة العبارة القائلة إن "اتجاه جريدة «فكر العمال» هو اتجاه العمال الروس التقدميين" (مثلما أعلنت هيئة التحرير في النص المذكور آنفا). في الواقع، إذا ما أرادت هيئة تحرير جريدة «فكر العمال» اتباع المسار المشار إليه (المشار إليه حتى الآن فقط) في ذلك النص، فهذا يعني أنها فهمت خطأ البرنامج الذي وضعه مؤسسو الاشتراكية-الديموقراطية الروسية، وهو برنامج قد صادف تاريخه اجماع كل الاشتراكيين الديمقراطيين الروس الناشطين في روسيا عليه. وهذا يعني أنه جرى تقهقر بخطوة إلى الوراء فيما يتعلق بمستوى التطور النظري والعملي الذي أنجزته الاشتراكية-الديموقراطية الروسية.

لقد جرى شرح اتجاه جريدة «فكر العمال» في المقال الرئيسي من الملحق المنفصل وعنوانه "واقعنا" (بإمضاء: ر. م.)، وهو المقال الذي يجب علينا الآن أن نحلل بأكبر قدر من التفصيل.

نرى، منذ بداية المقال، أن ر. م. يقدم وصفا زائفا لـ"واقعنا" بوجه عام، وللحركة البروليتارية عندنا بوجه خاص، وأنه يكشف عن مفهوم ضيق للغاية للحركة البروليتارية ورغبته في عدم الالتفات إلى أشكالها العليا التي نشأت تحت قيادة الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس. يقول ر. م.، في بداية المقال: "تحتوي حركتنا البروليتارية على جنين أكثر أشكال التنظيم تنوعا" بدءا من لجان الإضراب إلى الجمعيات القانونية (التي يسمح بها القانون).

"أهذا كل شيء؟". هكذا يسأل القارئ في حيرة. بالتأكيد ولا بد أن يكون ر. م. قد وقف على بعض أشكال التنظيم الأعلى والأكثر تقدما عند الحركة البروليتارية في روسيا! ومن الواضح أنه لا يرغب في الإشارة إليها، لأنه، في الصفحة التالية، يكرر تأكيده بطريقة أكثر ثقة، إذ يقول: "مهمات الحركة في الوقت الراهن، قضية البروليتارية الحقيقية عند العمال

الروس، إنما تختزل في تحسين أوضاع العمال بكل الوسائل الممكنة"، ومع ذلك لم يجر ذكر من الوسائل إلا لجان الإضراب والجمعيات القانونية! وهكذا فإن الحركة البروليتارية الروسية تختزل نفسها، كما يبدو، في الإضرابات والجمعيات القانونية! لكن هذا محض كذب! فمنذ حوالي عشرين عاما، أسست الحركة البروليتارية الروسية منظمة جد واسعة، وطرحت أهدافا أكثر شمولا (سنتناولها بالتفصيل أدناه). لقد أسست الحركة البروليتارية الروسية منظمات من قبيل منظمات كل من سانت بطرسبرغ وكييف واتحادات النضال ورابطة العمال اليهود وغيرها. وبالفعل، يقول ر. م. إن الحركة البروليتارية اليهودية لها "طابع سياسي خاص" لكنها استثناء. لكن هذا كذب، مرة أخرى. لأنه لو كانت رابطة العمال اليهود أمرا "خاصا"، لما كانت قد اندمجت مع عديد المنظمات الروسية لتأليف حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي. إن تأسيس هذا الحزب هو أكبر خطوة خطتها الحركة البروليتارية الروسية خلال اندماجها بالحركة الثورية الروسية. وتبين هذه الخطوة بوضوح كيف أن الحركة البروليتارية الروسية لم تختزل نفسها في الإضرابات والجمعيات القانونية. لكن كيف حدث أن الاشتراكيين الروس الذين يكتبون في جريدة «فكر العمال» غير مستعدين لاستيعاب هذه الخطوة وفهم أهميتها؟

حدث ذلك لأن ر. م. لا يفهم علاقة الحركة البروليتارية الروسية بالاشتراكية وبالحركة الثورية في روسيا، لأنه لا يفهم الأهداف السياسية للبروليتاريا الروسية. يكتب ر. م.: "إن المؤشر الأكثر تحديدا لاتجاه حركتنا هو، بالطبع، ما يقدمه العمال من مطالب". ونحن نسأل: لماذا لم تدخل مطالب الاشتراكيين-الديموقراطيين والمنظمات الاشتراكية-الديموقراطية ضمن مؤشرات حركتنا؟ فعلى أي أساس يفصل ر. م. مطالب العمال الروس عن مطالب الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس؟ يقيم ر. م. هذا الفصل في كامل مقاله بنفس الطريقة التي يعتمدها محررو جريدة «فكر العمال»، بوجه عام، في كل عدد من أعداد جريدتهم. ولكي نفسر خطأ جريدة «فكر العمال»، يجب أن نوضح قضية أعم ألا وهي علاقة الاشتراكية بالحركة البروليتارية. في البداية، كانت الاشتراكية والحركة البروليتارية موجودتان على نحو منفصل في جميع البلدان الأوروبية. ناضل العمال ضد الرأسماليين، ونظموا الإضرابات والنقابات، في حين ظل الاشتراكيون على حدة إلى جانب الحركة

البروليتارية، وصاغوا مذاهب تنتقد نظام المجتمع المعاصر الرأسمالي البرجوازي، وطالبوا باستبداله بنظام آخر أعلى هو النظام الاشتراكي. أدى انفصال الحركة البروليتارية عن الاشتراكية إلى الضعف والتخلف في كل منهما: نظريات الاشتراكيين، غير المستخدمة في النضال العمالي، لم تكن أكثر من طوباوية وأمنية طيبة ليس لها أي تأثير في الحياة الواقعية. وظلت الحركة البروليتارية صغيرة ومشتتة ولم تكتسب أهمية سياسية ولم تستنر بالعلم المتقدم في عصرها. لهذا السبب، نرى في جميع البلدان الأوروبية رغبة متزايدة باستمرار لاندماج الاشتراكية بالحركة البروليتارية في حركة اشتراكية-ديموقراطية واحدة. عندما يجري هذا الاندماج، يصبح نضال العمال الطبقي هو نضال البروليتاريا الواعي في سبيل تحرير نفسها من الاستغلال المسلط عليها من الطبقات المالكة ويتطور إلى شكل أعلى للحركة البروليتارية الاشتراكية: حزب اشتراكي-ديمقراطي بروليتاري مستقل. ولقد أنجز كارل ماركس وفريدريك إنجلس، خلال توجيههما الاشتراكية نحو الاندماج بالحركة البروليتارية، أعظم خدمة: فقد ابتكرا نظرية ثورية أوضحت ضرورة هذا الاندماج وأوكلت للاشتراكيين مهمة تنظيم نضال البروليتاريا الطبقي.

وهذا ما وقع، على وجه التحديد، في روسيا. فقد كانت الاشتراكية قائمة في روسيا أيضا منذ زمن طويل، منذ عدة عقود، بمعزل عن نضال العمال ضد الرأسماليين، بمعزل عن الإضرابات العمالية، إلخ. فمن ناحية، لم يفهم الاشتراكيون نظرية ماركس. وظنوا أنها غير قابلة للتطبيق في روسيا. من ناحية أخرى، ظلت الحركة البروليتارية الروسية في شكل جنيني صرف. عندما تأسس اتحاد عمال جنوب روسيا عام 1875 واتحاد عمال شمال روسيا عام 1878، لم تسلك تلك المنظمتين العماليتين الطريق الذي اختاره الاشتراكيون الروس. فقد طالبتا بحقوق سياسية للشعب، وأرادتا خوض النضال في سبيل تلك الحقوق. لكن الاشتراكيين الروس كانوا حينها مخطئين لما اعتبروا النضال السياسي انحرافا عن الاشتراكية. ورغم ذلك، لم يتمسك الاشتراكيون الروس بنظريتهم تلك غير المتطورة والمضللة. فقد أرادوا أن يتقدموا، وأن يقبلوا بتعاليم ماركس، وان يطوروا نظرية اشتراكية بروليتارية ممكنة التطبيق في روسيا: نظرية الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس. كان تأسيس الاشتراكية-الديموقراطية الروسية هو أعظم خدمة قدمتها فرقة «تحرير العمل»، بليخانوف،

وأكسيلرود، وأصدقائهما. [لقد قام أحد رفاقنا بتحليل اندماج الاشتراكية الروسية بالحركة البروليتارية الروسية تحليلا تاريخيا في كراس عنوانه: «الراية الحمراء في روسيا، موجز تاريخ الحركة البروليتارية الروسية». لقد نفذت نسخ الكراس في وقت وجيز. – لينين] لقد كانت الحركة البروليتارية الروسية، منذ تأسيس الاشتراكية-الديموقراطية الروسية (1883)، من خلال جميع مظاهرها الواسعة، تقترب أكثر فأكثر من الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس محاولة الاندماج بهم. كان تأسيس حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي (ربيع عام 1898) بمثابة أعظم خطوة إلى الأمام نحو هذا الاندماج. في الوقت الراهن، تتمثل المهمة الرئيسية لجميع الاشتراكيين الروس وجميع العمال الروس الواعين في تعزيز هذا الاندماج، وتوحيد وتنظيم حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي. وآن أي إمرء لا يرغب في الاعتراف بهذا الاندماج، أو يحاول أن يقيم نوع من الجدار المصطنع يفصل الحركة البروليتارية عن الاشتراكية-الديموقراطية في روسيا فإنما هو لا يقدم أي خدمة بل يضر بكل من الاشتراكية البروليتارية والحركة البروليتارية في روسيا.

لنتابع. كتب ر. م.: "فيما يتعلق بالمطالب بعيدة المدى، المطالب السياسية، فإنه فقط في مطالب عمال النسيج في سانت بطرسبرغ في عام 1897 رأينا أول حالة، والتي كانت لا تزال ضعيفة الوعي، عند عمالنا الذين يطرحون مثل هذه مطالب السياسية بعيدة المدى". علينا أن نقول، مرة أخرى، أن هذا بلا شك غير صحيح. فبنشر مثل هذه الأقوال، فإن هيئة تحرير جريدة «فكر العمال» تؤكد، أولا، أنها نسيت تاريخ الحركة الثورية والبروليتاريا الروسية وهو أمر لا يغتفر في الاشتراكية-الديموقراطية، وثانيا، تؤكد على مفهوم ضيق لا يغتفر للقضية البروليتارية. لقد قدم العمال الروس مطالب سياسية بعيدة المدى، في ماي 1898، في المنشور الصادر عن «رابطة سانت بطرسبرغ للنضال» وفي جريدتي «ورقة عمال سانت بطرسبرغ» و«جريدة العمال»، وقد جرى الاعتراف بالأخيرة في عام 1898 من جانب أهم المنظمات الاشتراكية-الديمقراطية الروسية كلسان حال حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي الرسمي. جريدة «فكر العمال»، بتجاهلها لهذه الحقائق، إنما هي تسير إلى الوراء وتبرر بصورة تامة الرأي القائل بأنها لا تمثل العمال المتقدمين، ولكنها تمثل الفئة الدنيا غير المتطورة من البروليتاريا (يقول ر. م. نفسه في مقاله أنه سبق أن

أشارت جريدة «فكر العمال» إلى ذلك). إن الفئة الدنيا من البروليتاريا لا تعرف تاريخ الحركة الثورية الروسية، ولا يعرفها ر. م. ولا تفهم الفئة الدنيا من البروليتاريا العلاقة بين الحركة البروليتارية والاشتراكية-الديموقراطية، ولا يفهم ر. م. تلك العلاقة. لماذا لم يؤلف العمال الروس في التسعينيات منظماتهم الخاصة المنفصلة عن الاشتراكيين كما فعلوا في السبعينيات؟ لماذا لم يطرحوا مطالبهم السياسية منفصلة عن الاشتراكيين؟ من الواضح أن ر. م. يفهم هذا على أنه يعني أن "العمال الروس ما زالوا قليلي الاستعداد لهذا" (الصفحة 5 من مقاله)، لكن هذا التفسير ليس سوى دليل إضافي على أن له الحق في التحدث فقط نيابة عن الفئة الدنيا من البروليتاريا. فلم تكن الفئة الدنيا من العمال، خلال حركة التسعينيات، واعية لطابعها السياسي. ومع ذلك، يعلم الجميع (ويتحدث ر. م. نفسه عن ذلك) أن الحركة البروليتارية في التسعينيات اكتسبت أهمية سياسية واسعة النطاق. كان هذا بسبب حقيقة أن العمال المتقدمين، كما هو الحال دائما وفي كل مكان، حددوا طابع الحركة، وتبعتهم الجماهير العمالية لأنهم أظهروا استعدادهم وقدرتهم على خدمة قضية البروليتاريا، لأنهم أثبتوا كامل قدرتهم على كسب ثقة الجماهير. هؤلاء العمال المتقدمون كانوا اشتراكيين-ديموقراطيين، بل إن الكثير منهم شاركوا بشكل شخصي في الخلافات بين أتباع منظمة «إرادة الشعب» والاشتراكيين-الديموقراطيين التي ميزت تحول الحركة الثورية الروسية من اشتراكية الفلاحين والتآمر إلى اشتراكية البروليتاريا. لذلك، يمكن فهم سبب عدم انفصال هؤلاء العمال المتقدمين عن الاشتراكيين والثوريين في منظمة خاصة بهم. كان لهذا الاغتراب معنى وكان ضروريا في الوقت الذي عزلت فيه الاشتراكية نفسها عن الحركة البروليتارية. كان مثل هذا الاغتراب مستحيلا وبلا معنى بمجرد أن رأى العمال المتقدمون أمامهم الاشتراكية البروليتارية والمنظمات الاشتراكية-الديمقراطية. كان اندماج العمال المتقدمين والمنظمات الاشتراكية-الديموقراطية طبيعيا وحتميا. لقد كانت نتيجة الحقيقة التاريخية العظيمة التي مفادها أنه في التسعينيات تلاقت حركتان اجتماعيتان عميقتان في روسيا: واحدة، حركة عفوية، حركة شعبية من بين صفوف البروليتاريا، والأخرى، حركة الفكر الاجتماعي السائر في اتجاه نظرية ماركس وإنجلس، نحو نظرية الاشتراكية-الديموقراطية.

يتضح مما يلي مدى ضيق مفهوم النضال السياسي عند جريدة «فكر العمال». وفي الحديث عن اتساع المطالب السياسية، يقول ر. م.: "لكي يدير العمال مثل هذا النضال السياسي بوعي واستقلالية، من الضروري أن تخوضه المنظمات البروليتارية نفسها، إذ يجب أن تجد مطالب العمال السياسية سندا في وعي العمال باستحقاقاتهم السياسية المشتركة ومصالح اللحظة [لاحظ جيدا! – لينين]، إذ يجب أن تكون مطالب المنظمات العمالية [المهنية – لينين] نفسها، وأن يجري وضعها وتناولها بصورة مشتركة من جانب تلك المنظمات العمالية بمبادرة منها...." ويوضح كذلك كيف أن مطالب العمال السياسية المشتركة المباشرة، في الوقت الراهن (!!)، لا تزال يوم العمل من عشر ساعات واستعادة الأعياد التي ألغيت بموجب قانون 2 جوان 1897.

ورغم كل ذلك، لا يزال محررو جريدة «فكر العمال» مندهشين من اتهامهم بالتخلي عن السياسة! في الواقع، أليس اختزال السياسة في نضال النقابات المهنية في سبيل الإصلاحات الفردية هو التخلي عن السياسة؟ أليس هذا رفضا للمبدأ الأساسي للاشتراكية-الديموقراطية العالمية وهو أن على الاشتراكيين-الديمقراطيين أن يعملوا على تنظيم نضال البروليتاريا الطبقي في أحزاب سياسية بروليتارية مستقلة تناضل في سبيل الديمقراطية كوسيلة للبروليتاريا للظفر بالسلطة السياسية وتنظيم مجتمع اشتراكي؟ بغموض لا حد لغرابته، يتخلى آخر مشوهي الاشتراكية-الديمقراطية عن كل شيء عزيز على الاشتراكيين-الديموقراطيين، كل ما يمنحنا الحق في اعتبار الحركة البروليتارية حركة تاريخية عالمية. فلا يهمهم أن الخبرة الطويلة للاشتراكية الأوروبية والديمقراطية الأوروبية تعلمهم الدرس القائل بأنه من الضروري السعي إلى تأليف أحزاب سياسية مستقلة للبروليتاريا. لا يهمهم أن الحركة الثورية الروسية قد طورت، طوال مسار تاريخي طويل وشاق، اتحاد الاشتراكية والحركة البروليتارية، واتحاد المثل الاجتماعية والسياسية الكبرى ونضال البروليتاريا الطبقي. لا يهمهم أن العمال الروس المتقدمين قد أرسوا أسس حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي. ليسقط كل ذلك! لنحرر أنفسنا من الزاد الأيديولوجي الثقيل للغاية ومن تجربة تاريخية شديدة الصعوبة والاجهاد. ولندع: "لتبقى هناك في الوقت الراهن" فقط النقابات الحرفية (إمكانية التنظيم التي لم يتم إثباتها في روسيا على الإطلاق، لو تركنا

الجمعيات القانونية خارج الحساب)، لندع هذه النقابات الحرفية، "بمبادرة منها"، تطالب بمطالب تفصيلية، مطالب "اللحظة"، تطالب بإصلاحات صغيرة تافهة!! ما كل هذا إن لم يكن تبشيرا باتجاه القهقرى؟ وإن لم يكن دعاية لتدمير الاشتراكية!

ونرجو الانتباه إلى أن جريدة «فكر العمال» لا تقتصر على فكرة أن المنظمات المحلية يجب أن تطور أشكالها المحلية الخاصة بالنضال والدوافع المحددة للتحريض، وأساليب التحريض، وما إلى ذلك، فلن يعترض أحد على هذه الفكرة. ولم يطالب الاشتراكيون-الديموقراطيون الروس أبدا بأي شيء يعيق استقلال العمال في هذا الصدد. لكن جريدة «فكر العمال» تريد إسقاط الأهداف السياسية الكبرى للبروليتاريا الروسية جانبا تماما و"في الوقت الراهن" تقتصر "حصريا" على "مصالح اللحظة". لطالما سعى الاشتراكيون-الديموقراطيون الروس، حتى الآن، إلى الاستفادة من كل مطلب في الوقت الراهن، ومن خلال التحريض على هذا المطلب، لتنظيم البروليتاريا للنضال ضد الاستبداد كهدف مباشر. والآن تريد جريدة «فكر العمال» حصر نضال البروليتاريا في صراع تافه من أجل المطالب الصغيرة. ويقدّم ر. م.، وهو يعلم جيدا أنه يتراجع عن وجهات نظر الاشتراكية-الديموقراطية الروسية بأسرها، الرد التالي على أولئك الذين يتهمون جريدة «فكر العمال»: يقال إن الإطاحة بالقيصرية هي الهدف المباشر لحركة العمال الروسية... ويتساءل ر. م. من أي شكل من أشكال الحركة البروليتارية، أمن "حركة الإضراب؟ أم جمعيات المصلحة المتبادلة؟ أم حلقات العمال؟" (ص 5 من المقال). ونجيب على ذلك: تحدث عن نفسك فقط، ولفائدة مجموعتك، تحدث عن الفئة الدنيا من البروليتاريا التي تمثلها في منطقة بعينها، ولكن لا تفترض أنك تتحدث نيابة عن العمال الروس المتقدّمين. فكثيرا ما لا يدرك ممثلو الفئة الدنيا من البروليتاريا أن النضال من أجل إسقاط الاوتوقراطية لا يمكن أن يقوم به إلا حزب ثوري. وإن ر. م. لا يدرك ذلك. لكن العمال المتقدمين يدركون ذلك. ولا يعرف ممثلو البروليتاريا الأقل تقدّما في كثير من الأحيان أن الحركة البروليتارية الروسية لا تقتصر على نضال الإضراب، على جمعيات المصلحة المتبادلة والحلقات العمالية. وأن الحركة البروليتارية الروسية تسعى منذ فترة طويلة إلى تنظيم نفسها في حزب ثوري وبرهنت عن هذا السعي بالأعمال. لا يعرف ر. م. ذلك أيضا، لكن العمال الروس المتقدمين يعرفون ذلك.

يحاول ر. م. تقديم سوء فهمه الكامل للاشتراكية-الديموقراطية كنوع من فهم معين لـ "واقعنا". دعونا نلقي نظرة فاحصة على أفكاره في هذا الموضوع.

كتب ر. م.: "فيما يتعلق بمفهوم الأوتوقراطية نفسه، ... لن نتناول ذلك مطولا، مفترضين أن كل الذين نتحدث إليهم لديهم التصور الأكثر دقة ووضوحا لمثل هذه الأمور." سنرى قريبا كيف أن ر. م. نفسه لديه تصور غير دقيق وغير واضح للغاية لمثل هذه الأمور. ولكن دعونا أولا نذكر بأمر آخر. هل هناك عمال من بين أولئك الذين يتحدث إليهم ر. م.؟ بالطبع، هناك. وإذا كان الأمر كذلك، فأين هم من أجل الحصول على تصور دقيق وواضح للأوتوقراطية؟ من الواضح أن ذلك يتطلب الدعاية الأوسع والأكثر منهجية لأفكار الحرية السياسية بوجه عام. التحريض لازم لربط كل مظهر فردي من مظاهر عنف الشرطة والقمع من جانب السلطة بـ"مفهوم دقيق" (في أذهان العمال) عن الأوتوقراطية. يبدو أن هذا أمر أساسي. ولكن إذا كان ذلك كذلك، فهل يمكن أن تنجح الدعاية والتحريض المحليان ضد الأوتوقراطية؟ أليس من الضروري تماما تنظيم مثل هذه الدعاية والتحريض في جميع أنحاء روسيا في نشاط مخطط واحد، أي في نشاط طرف واحد؟ لماذا إذن لا يشير ر. م. إلى أن مهمة تنظيم الدعاية المنهجية أو التحريض ضد الأوتوقراطية هو أحد الأهداف المباشرة للحركة البروليتارية الروسية؟ فقط لأن لديه مفهوم غير دقيق وغير واضح لمهمات الحركة البروليتارية الروسية والاشتراكية-الديموقراطية الروسية.

يشرع ر. م. في شرح كيف أن الأوتوقراطية "قوة شخصية" هائلة (بيروقراطية كالبنيان المرصوص) و "قوة اقتصادية" هائلة (موارد مالية). لن نتطرق إلى الجوانب "غير الدقيقة" في شرحه (ففيه الكثير مما هو "غير دقيق")، ولكننا سننتقل مباشرة إلى النقطة الرئيسية:

يسأل ر. م. عن الاشتراكية-الديموقراطية الروسية: "أليست هي إسقاط هذه السلطة الشخصية والاستيلاء على هذه القوة الاقتصادية التي نصح العمال الروس في هذه اللحظة بالذات بإبرازها على أنها المهمة الأولى والفورية عندالمنظمات الحالية (الجنينية)؟ (فلن نذكر حتى الثوريين الذين يقولون إن هذه المهمة إنما يجب أن تتولاها حلقات العمال المتقدمين)".

بدهشة نفرك أعيننا ونقرأ هذا المقتطف الغريب أكثر من مرتين أو ثلاث مرات. بالتأكيد يجب أن نكون مخطئين! لكن لا، لسنا كذلك. لا يعرف ر. م. في الواقع ما المقصود بإسقاط الأوتوقراطية. من الصعب تصديق ذلك، إنها حقيقة. لكن بعد التشويش في الأفكار الذي رأينا عند ر. م.، هل يصعب تصديق ذلك؟

يخلط ر. م. بين استيلاء الثوريين على السلطة وبين إسقاط الثوريين الأوتوقراطية.

لقد سعى الثوريون الروس القدامى (من منظمة «إرادة الشعب») إلى الاستيلاء على السلطة عبر حزب ثوري. لقد اعتقدوا أنه من خلال الاستيلاء على السلطة، فإن "الحزب سيسقط السلطة الشخصية" للأوتوقراطية، أي سيعين وكلائه بدلا من المسؤولين الحكوميين، و"الاستيلاء على السلطة الاقتصادية"، أي جميع الموارد المالية للدولة فينجز بذلك الثورة الاجتماعية. لقد سعى أعضاء منظمة «إرادة الشعب» (القدامى) في الواقع إلى "إسقاط السلطة الشخصية والاستيلاء على السلطة الاقتصادية" للأوتوقراطية، ونقول هذا مستخدمين ذلك التعبير الأخرق عند ر. م. ومما لا شك فيه، ان عارض الاشتراكيون-الديموقراطيون الروس هذه النظرية الثورية. ولقد أخضعها بليخانوف لنقد لاذع في مقاليه المعنونين «الاشتراكية والنضال السياسي» (1883) و«اختلافاتنا» (1885)، مشيرا إلى مهمة الثوريين الروس – تأسيس حزب بروليتاري ثوري يجب أن يكون هدفه المباشر إسقاط الأوتوقراطية. ماذا نعني بإسقاط الأوتوقراطية؟ ولكي نشرح هذا الأمر للسيد ر. م.، وجب علينا أن نجيب عن سؤال: ما هي الأوتوقراطية؟ الأوتوقراطية (الحكم المطلق، الملكية المطلقة) هو شكل الحكم الذي فيه تمارس كل السلطات العليا كاملة ودون تجزئة من جانب الملك مطلق، القيصر. يصدر القيصر القوانين، ويعين المسؤولين، ويجمع إيرادات البلاد وينفقها دون أي مشاركة للشعب في التشريع أو في المراقبة الإدارة. لذا، تعني الأوتوقراطية السلطة المطلقة للمسؤولين الحكوميين والشرطة وحرمان الشعب من الحقوق. يعاني الشعب بأكمله من هذا الحرمان من الحقوق، لكن الطبقات المالكة (خاصة مالكي الأراضي الأغنياء والرأسماليين) تمارس تأثيرا قويا على البيروقراطية. وتعاني البروليتاريا

اضطهادا مضاعفا: الحرمان من الحقوق الذي يعاني منه الشعب الروسي بأكمله، واضطهاد العمال من جانب الرأسماليين، الذين يجبرون الحكومة على ان تخدم مصالحهم.

ماذا نعني بإسقاط الأوتوقراطية؟ إنه ينطوي على تنازل القيصر عن السلطة المطلقة. منح الشعب الحق في انتخاب ممثليه للتشريع ومراقبة المسؤولين الحكوميين، ومراقبة جمع إيرادات الدولة ونفقاتها. يسمى هذا النوع من الحكم الذي يشارك فيه الناس في التشريع والإدارة الشكل الدستوري للحكم (الدستور = قانون مشاركة ممثلي الشعب في التشريع وإدارة الدولة). وبالتالي، فإسقاط الأوتوقراطية يعني استبدال الشكل الأوتوقراطي للحكم بالشكل الدستوري للحكم. لذا، لإسقاط الأوتوقراطية، ليس من الضروري "إسقاط السلطة الشخصية أو الاستيلاء على السلطة الاقتصادية"، ولكن من الضروري إجبار الحكومة القيصرية على التخلي عن سلطتها المطلقة ودعوة لمجلس مركزي من ممثلي السكان لصياغة دستور ("للظفر بدستور ديمقراطي" [دستور الشعب، يصاغ لمصلحة الشعب – لينين]، مثلما هو مدرج في مشروع برنامج الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس الذي نشرته فرقة «تحرير العمل» عام 1885).

لماذا يجب أن يكون إسقاط الأوتوقراطية المهمة الأولى للبروليتاريا الروسية؟ لأن البروليتاريا في ظل الأوتوقراطية غير قادرة على تطوير نضالها على نطاق واسع، والحصول على أي مواقع ثابتة في المجالين الاقتصادي والسياسي، وتأليف منظمات جماهيرية قوية، ورفع راية الثورة الاجتماعية أمام جماهير الكادحين وتربيتهم على النضال في سبيلها. فنضال كل البروليتاريا الفاصل ضد طبقة البرجوازيين غير ممكن إلا في ظل ظروف الحرية السياسية، والهدف النهائي لهذا النضال هو أن تظفر البروليتاريا بالسلطة السياسية وتنظم المجتمع الاشتراكي. إن الاستيلاء على السلطة السياسية من جانب البروليتاريا المنظمة التي اجتازت تمرسا طويلا في النضال سيكون حقا "إسقاط السلطة الشخصية والاستيلاء على السلطة الاقتصادية" للحكومة البرجوازية. لكن الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس لم يضعوا قط هذا الاستيلاء على السلطة في مقام المهمة للعمال الروس المباشرة. ولطالما أكد الاشتراكيون-الديمقراطيون الروس على أن في ظل ظروف الحرية السياسية فقط، عندما

يكون هناك صراع جماهيري واسع النطاق، يمكن للبروليتاريا الروسية أن تطور منظمات من أجل النصر النهائي للاشتراكية.

لكن كيف يمكن للبروليتاريا الروسية أن تسقط الأوتوقراطية؟ إن محرري جريدة «فكر العمال» يسخرون من فرقة «تحرير العمل» التي أسست الاشتراكية-الديموقراطية الروسية وسجلت في برنامجها أن «النضال ضد الأوتوقراطية إلزامي حتى بالنسبة للحلقات العمالية التي تؤلف حاليا جنين الحزب البروليتاري الروسي المستقبلي». يبدو الأمر سخيفا عند جريدة «فكر العمال» (انظر عدد 7 والمقال قيد المراجعة): اسقاط الأوتوقراطية – من جانب حلقات العمال! وردا على ذلك نقول لمحرري جريدة «فكر العمال»: ممن تسخرون؟ إنكم تسخرون من أنفسكم! ويشتكي محررو جريدة «فكر العمال» من أن الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس ليسوا رفقاء في الجدال معهم. لندع القارئ يحكم على من يقف الجدال إلى جانبه بشكل غير متسق: إلى جانب الاشتراكيين-الديمقراطيين الروس القدامى الذين بينوا وجهة نظرهم بوضوح والذين يعلنون صراحة انهم يعتبرون آراء "الشباب" خاطئة ويشرحون ذلك، أم إلى جانب "الشباب" الذين لا يسمون خصومهم ولكن يلاحقونهم من وراء أغلفة الكتب، أولا عند "مؤلف كتاب ألماني عن تشيرنيشيفسكي" (بليخانوف، الذي، علاوة على ذلك، يخلطون بينه وبين بعض الكتاب القانونيين)، ثم في فرقة «تحرير العمل»، مع تشويه فقرات من برنامجها دون طرح أي شيء كبرنامج محدد خاص بهم. نعم، نحن ندرك واجب الرفاق، وواجب دعم جميع الرفاق، وواجب التسامح مع آراء الرفاق، ولكن فيما يتعلق بنا، فإن واجبنا الرفاقي ينبع من واجبنا تجاه الاشتراكية-الديموقراطية الروسية والعالمية، وليس العكس صحيحا. نحن ندرك التزاماتنا تجاه جريدة «فكر العمال»، ليس لأن محرريها هم رفاقنا، وإنما نعتبر محرري جريدة «فكر العمال» رفاقنا فقط لأنهم، وطالما، يعملون في صفوف الاشتراكية-الديموقراطية الروسية (وبالتالي العالمية). لذلك، إذا كنا على يقين من أن "الرفاق" يسيرون إلى الوراء، بعيدا عن البرنامج الاشتراكي-الديموقراطي، وأن "الرفاق" يخرقون أهداف الحركة العمالية ويشوهونها، فنحن نعتبر أن من واجبنا التعبير عن قناعاتنا بيقين تام لا يدع شيئا لا يذكر!

لقد ذكرنا للتو أن محرري جريدة «فكر العمال» يشوهون آراء فرقة «تحرير العمل». لندع القارئ يحكم بنفسه. كتب ر. م.: "لقد كنا نعد أنفسا لا لنفهم رفاقنا، الذين يعتبرون برنامجهم في فرقة «تحرير العمل» بمثابة إجابة بسيطة على السؤال: 'من أين نحصل على القوى للنضال ضد الأوتوقراطية؟'" (ونقرأ في مكان آخر: "يعتبر الثوريون عندنا الحركة العمالية أفضل أداة لإسقاط الأوتوقراطية"). أنظر في مشروع برنامج الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس الذي نشرته فرقة «تحرير العمل» عام 1885 وأعاد أكسلرود طباعته في كتابه المعنون «مهمات الاشتراكية-الديموقراطية الروسية الراهنة وتكتيكها» (جنيف، 1898)، وسوف ترى أن البرنامج يقوم على تحرير العمل من اضطهاد رأس المال، ونقل جميع وسائل الإنتاج إلى الملكية الاجتماعية، واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية، وتأسيس حزب ثوري بروليتاري. من الواضح أن ر. م. يشوه هذا البرنامج وغير مستعد لفهمه. لقد استغل كلمات أكسلرود في بداية كراسه حيث ذكر أن برنامج فرقة «تحرير العمل»، كان "إجابة على السؤال": أين نجد القوى للنضال ضد الأوتوقراطية؟ ومع ذلك، فمن الحقائق التاريخية أن برنامج فرقة «تحرير العمل» كان هو الإجابة على السؤال الذي طرحه الثوريون الروس ومجمل الحركة الثورية الروسية. ولكن، ألأن البرنامج كان قد أجاب على هذا السؤال، ينتج عن ذلك أن الحركة البروليتارية كانت أداة لهدف فرقة «تحرير العمل»؟ إن مثل "سوء الفهم" هذا من جانب ر. م. يبين فقط أنه ليس على دراية بالحقائق المعروفة عموما عن نشاط فرقة «تحرير العمل».

لنتابع. لا يفهم ر. م. كيف يمكن أن يكون "إسقاط الاوتوقراطية" مهمة الحلقات العمالية؟ أنظر برنامج فرقة «تحرير العمل»: «يعتبر الاشتراكيون-الديموقراطيون الروس أن الحلقات العمالية هي الوسيلة الرئيسية للنضال السياسي ضد الأوتوقراطية». كما نقرأ منه ما يلي: «التحريض في صفوف البروليتاريا وزيادة انتشار الأفكار الاشتراكية والمنظمات الثورية بين العمال. هذه المنظمات، المرتبطة ارتباطا وثيقا ببعضها البعض بشكل متكامل ولا تكتفي بالاشتباكات الفردية مع الحكومة، لن تضيع الوقت في الانتقال، في اللحظة المناسبة، إلى هجوم عام وفاصل ضد الحكومة». ولقد كان هذا بالضبط التكتيك الذي اتبعته المنظمات الروسية التي أسست حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي الروسي في ربيع عام 1898.

وأثبت أن مثل تلك المنظمات كانت قوة سياسية هائلة في روسيا. إذا كانت هذه المنظمات تؤلف حزبا واحدا وتقوم بتحريض واسع النطاق ضد الحكومة الأوتوقراطية، مستخدمة لهذا الغرض جميع عناصر المعارضة الليبرالية، فإن هدف الظفر بالحرية السياسية سيكون بلا شك هدفا ممكن التحقيق من جانب مثل هذا الحزب. فإذا كان محررو جريدة «فكر العمال» "مستعدين لعدم فهم" هذا، فنحن "مستعدون" لتقديم النصيحة لهم: تعلموا، أيها السادة، فهذه الأشياء في حد ذاتها ليس من الصعب فهمها.

لنعد، مع ذلك، إلى ر. م.، الذي تركناه يجادل في النضال ضد الأوتوقراطية. تبين وجهة نظره الخاصة في هذا الموضوع على نحو أوضح اتجاه القهقرى الجديد عند جريدة «فكر العمال».

كتب ر. م.: "نهاية الأوتوقراطية واضحة... النضال ضد الأوتوقراطية هو أحد شروط التطور القوي لجميع العناصر الاجتماعية الحيوية". من هذا المنطلق، من المحتمل أن يفهم القارئ أن النضال ضد الأوتوقراطية ضروري للبروليتاريا. لكن انتظر، فالسيد ر. م. له منطقه الخاص ومفرداته الخاصة. إنه يضيف كلمة "اجتماعي" إلى كلمة "النضال"، (النضال الاجتماعي)، وله في ذلك فهما خاصا جدا. ويستعرض ر. م. المعارضة القانونية من جانب العديد من فئات السكان الروس للحكومة، ويخلص إلى الاستنتاج: "في الواقع، النضال في سبيل الحكم المحلي والحكم الذاتي العمومي الحضري والمدارس العمومية وفي سبيل مساعدة عموم السكان الجائعين، وما إلى ذلك، إنما كل ذلك نضال ضد الأوتوقراطية". "إن ضرورة خوض نضال اجتماعي ضد الأوتوقراطية البيروقراطية واضح لجميع الفئات والفرق التقدمية والواعية طبقيا من السكان. أكثر من ذلك، فهذا النضال الاجتماعي، الذي من خلال بعض سوء الفهم الغريب لم يجذب انتباه العديد من الكتاب الثوريين الروس، مثلما رأينا، قد شرع المجتمع الروسي يديره ولم يبدأ من قبل". "السؤال الحقيقي هو كيف تقوم هذه الفئات الاجتماعية المنفصلة... بتسيير هذا [لاحظ هذا!] النضال ضد الأوتوقراطية بأقصى قدر من النجاح... السؤال الرئيسي بالنسبة لنا هو معرفة كيف ينبغي لعمالنا أن يديروا هذا النضال الاجتماعي [!] ضد الأوتوقراطية"...

مرة أخرى، تزخر حجج ر. م. بكم لا يصدق من الارتباك والأخطاء.

أولا، يخلط ر. م. بين المعارضة القانونية والنضال ضد الأوتوقراطية، أي النضال في سبيل اسقاط الأوتوقراطية. هذا الارتباك، الذي لا يغتفر للاشتراكي، ناتج عن استخدامه لتعبير "النضال ضد الأوتوقراطية" دون شرح: قد يعني هذا التعبير (مع تحفظ) النضال ضد الأوتوقراطية، ولكن أيضا النضال ضد التدابير الفردية للأوتوقراطية داخل إطار النظام الأوتوقراطي نفسه.

ثانيا، إذ يعتبر ر. م. المعارضة القانونية نضالا اجتماعيا ضد الاوتوقراطية، وإذ يؤكد أن على عمالنا ان يخوضوا هذا "النضال الاجتماعي"، فكأنما هو يدفع عمالنا إلى المعارضة القانونية وليس إلى النضال الثوري ضد الاوتوقراطية. وبعبارة أخرى، يمعن في الحط البشع للاشتراكية-الديمقراطية بأن يخلط بينها وبين الليبرالية الروسية الاكثر ابتذالا وتسولا.

ثالثا، يعلن ر. م. كذبا صارخا فيما يتعلق بالكتاب الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس (صحيح، إنه يفضل توجيه لومه "لكل الرفاق"، دون ذكر الأسماء. ولكن إذا لم يكن في ذهنه الاشتراكيين-الديموقراطيين، فلا معنى لكلماته)، عندما يقول إنهم لا ينتبهون للمعارضة القانونية. على العكس من ذلك، فإن فرقة «تحرير العمل»، وأكسلرود على الأخص، وكذلك بيان حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي وكراس مهمات الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس (الذي نشره حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي والذي وصفه أكسلرود كشرح للبيان) – لم يكتفوا بالاهتمام بالمعارضة القانونية، بل أوضحوا بدقة علاقتها بالاشتراكية-الديموقراطية.

لنوضح القضية. ما هو نوع "النضال ضد الأوتوقراطية" الذي يديره جهاز الحكم المحلي عندنا، وجمعياتنا الليبرالية بوجه عام، والصحافة الليبرالية؟ هل يخوضون نضالا ضد الأوتوقراطية، في سبيل إسقاط الأوتوقراطية؟ لا، لم ينخرطوا قط في مثل هذا النضال ولا يزالون غير مشاركين فيه. فلا يخوض هذا النضال إلا الثوريين الذين يأتون في كثير من الأحيان من الوسط الليبرالي ويدعمونه من باب التعاطف. لكن شن النضال الثوري لا يعني بأي حال التعاطف مع الثوريين ودعمهم. وليس النضال ضد الأوتوقراطية، بأي حال من

الأحوال، هو المعارضة القانونية للأوتوقراطية. فلا يعبر الليبراليون الروس عن عدم رضاهم عن الأوتوقراطية إلا بالشكل الذي أقرته الأوتوقراطية نفسها، أي الشكل الذي لا ترى فيه الأوتوقراطية تهديدا. ولم يكن أكبر عرض مارسته المعارضة الليبرالية بزيد عن التماسات الليبراليين من الحكومة القيصرية لجذب الناس إلى الإدارة. وفي كل مرة يقبل الليبراليون بصبر رفض الشرطة الوحشي لعريضتهم. لقد تحملوا القمع الوحشي الخارج عن القانون الذي تكافأ به حكومة الدرك حتى المحاولات القانونية للإفصاح عن الراي. لذا، فمجرد تقديم المعارضة الليبرالية على أنها نضال اجتماعي ضد الأوتوقراطية هو تشويه خالص للقضية، لأن الليبراليين الروس لم ينظموا أبدا حزبا ثوريا للنضال في سبيل إسقاط الأوتوقراطية، على الرغم من أنه كان بإمكانهم القيام بذلك عليه ولا يزال بإمكانهم ذلك لما لديهم سواء من الوسائل المادية او من ممثلي الليبرالية الروسية في الخارج. لا يكتفي ر. م. بتشويه القضية فحسب، بل إنه يتمادى باسم الاشتراكي الروسي العظيم ن. تشيرنيشيفسكي. يرى ر. م. "إن حلفاء العمال في هذا النضال، هم جميع الطبقات المتقدمة في المجتمع الروسي، الذين يدافعون عن مصالحهم ومؤسساتهم الاجتماعية، ولديهم تصور واضح للصالح العام، والذين "لا ينسون أبدا" [ر. م. يقتبس من تشيرنيشيفسكي – لينين] أن هناك "فرقا كبيرا بين ما إذا كانت التغييرات تحدث بقرار مستقل من الحكومة أو عن طريق الطلب الرسمي للمجتمع". إذا تم تطبيق هذا التعليق على جميع ممثلي "النضال الاجتماعي" بالطريقة التي يفهمها ر. م.، أي بالنسبة لجميع الليبراليين الروس، فهذا تزوير محض وبسيط. فلم يقدم الليبراليون الروس أبدا أية مطالب رسمية للحكومة، ولهذا السبب بالتحديد لم يلعب الليبراليون الروس أبدا، والآن بالتأكيد لا يمكن أن تلعب، دورا ثوريا مستقلا. لا يمكن أن تكون "جميع الفئات المتقدمة في المجتمع" حلفاء للبروليتاريا وللاشتراكية-الديمقراطية، ولكن فقط الأحزاب الثورية التي أسسها أعضاء ذلك المجتمع. بوجه عام، يمكن وينبغي لليبراليين أن يكونوا مجرد أحد مصادر القوى والوسائل الإضافية للحزب البروليتاري الثوري (كما ذكر أكسلرود بوضوح في الكراس المذكور آنفا). لقد سخر تشيرنيشيفسكي من "الفئات التقدمية في المجتمع الروسي" لحقيقة أنهم لم يفهموا ضرورة صياغة مطالب رسمية للحكومة ويتفرجون على الثوريين من بينهم وهم يهلكون تحت ضربات الحكومة الأوتوقراطية. في

هذه الحالة، فإن اقتباسات ر. م. من تشيرنيشيفسكي لا معنى لها مثل اقتباساته من نفس المؤلف، ومأخوذة، جزئيا، خارج سياقها، في المقالة الثانية من الملحق المنفصل، والتي تهدف إلى بيان كيف أن تشيرنيشيفسكي لم يكن طوبويا وأن الاشتراكيين-الديمقراطيين الروس لم يقفوا على كامل مغزى هذا "الاشتراكي الروسي العظيم". لقد عبر بليخانوف، في كتابه عن تشيرنيشيفسكي (مقالات في مجموعة الاشتراكي-الديمقراطي، صدرت في مجلد منفصل باللغة الألمانية)، عن كامل تقديره تقديره لأهمية تشيرنيشيفسكي. وشرح موقفه من نظرية ماركس وإنجلز. لقد كشف محررو جريدة «فكر العمال» فقط عن عدم قدرتهم على إعطاء أي شيء كتقييم متناسق وشامل لتشيرنيشيفسكي وجوانبه القوية والضعيفة.

إن "القضية الحقيقية" بالنسبة للاشتراكية-الديموقراطية الروسية لا تتعلق، بأي حال من الأحوال، بتحديد الكيفية التي يدير بها الليبراليون "النضال الاجتماعي" (يقصد ر. م. من خلال "النضال الاجتماعي"، كما رأينا، المعارضة القانونية)، ولكن كيفية تنظيم حزب ثوري من البروليتاريا مكرس للنضال في سبيل إسقاط الأوتوقراطية، وهو حزب يمكن أن يحصل على دعم جميع عناصر المعارضة في روسيا، وهو حزب يمكن أن يستخدم كل مظاهر المعارضة في نضاله الثوري. إنه على وجه التحديد الحزب البروليتاري الثوري المطلوب لهذا الغرض، لأنه في روسيا فقط يمكن للبروليتاريا أن تكون مقاتلة حازمة وثابتة في سبيل الديمقراطية، لأنه بدون التأثير القوي لمثل هذا الحزب، يمكن أن تظل العناصر الليبرالية «بطيئة، غير نشطة، قوة نائمة». (أكسلرود، المرجع السابق، ص 23). أما عندما يتفوه ر. م. بأشياء من قبيل إن "فئتنا الأكثر تقدما" تشن "نضالا اجتماعيا حقيقيا [!!] ضد الأوتوقراطية" (ص 12 من مقال ر. م.)، وإن "القضية الرئيسية عندنا هي كيف ينبغي لعمالنا أن يديروا هذا النضال الاجتماعي ضد الأوتوقراطية"، فإنما هو، في الواقع، يتراجع تماما عن الاشتراكية-الديموقراطية. يمكننا فقط تقديم النصيحة الجادة إلى محرري جريدة «فكر العمال» "حتى يفكروا جيدا في سؤال: إلى أين يريدون أن يسيروا وأين مكانهم الحقيقي: أهو بين الثوريين الذين يحملون راية الثورة الاجتماعية إلى البروليتاريا ويريدون تنظيمها في حزب ثوري سياسي، أم بين الليبراليين الذين يمارسون "نضالهم الاجتماعي" (أي المعارضة القانونية)؟ فلا تنطوي نظرية "نشاط العمال الاجتماعي المستقل" على أي

شيء اشتراكي على الإطلاق، ولا نظرية "المساعدة الاجتماعية المتبادلة" والنقابات المهنية التي "حتى الآن" تقتصر على يوم عمل من عشر ساعات، ولا نظرية "النضال الاجتماعي" لأجهزة الحكم المحلي والجمعيات الليبرالية، وغيرها ضد الأوتوقراطية – فلا يوجد شيء في هذه النظريات لن يقبله الليبراليون! وفي الواقع، يميل برنامج جريدة «فكر العمال» بأكمله (إن أمكن أن نسميه برنامجا)، جوهريا، إلى ترك العمال الروس غير متطورين ومنقسمين، ويجعلهم متذيلين لليبراليين!

وبعض عبارات ر. م. غريبة بشكل خاص، كأن يعلن مثلا: "المشكلة بأكملها هي أن المثقفين الثوريين عندنا مضطهدين بلا رحمة من جانب الشرطة السياسية، فيعتبرون من باب الخطأ النضال ضد الشرطة السياسية نضالا سياسيا ضد الأوتوقراطية". أي معنى يمكن أن يكون لتصريح من ذلك القبيل؟ تكون الشرطة سياسية عندما تضطهد أعداء الأوتوقراطية وأولئك الذين يكافحون ضد الأوتوقراطية. لهذا السبب، فإن جريدة «فكر العمال»، طالما لم يكتمل تحولها إلى ليبرالية، تحارب الشرطة السياسية كما يفعل جميع الثوريين والاشتراكيين الروس وجميع العمال الواعين طبقيا. فما يجب استخلاصه من واقع أن الشرطة السياسية تضطهد الاشتراكيين والعاملين بلا رحمة، وأن الأوتوقراطية تحتفظ بـ "جهاز جيد التنظيم"، "رجال دولة يتمتعون بالكفاءة والحيوية" (ص 7 من مقالة ر. م.)، إنما هما استنتاجان فقط: سيصدر الليبرالي الجبان البائس حكما على أن شعبنا بشكل عام وعمالنا بشكل خاص لا يزالون غير مهيئين للنضال وأن كل الآمال يجب أن تعقد في "نضال" أجهزة الحكم المحلي والصحافة الليبرالية، إلخ. هذا هو "النضال الحقيقي ضد الاوتوقراطية" وليس فقط النضال ضد الشرطة السياسية. سيستنتج كل اشتراكي وكل عامل واع طبقيا أن حزب البروليتاريا يجب أن يوجه كل جهوده لتأليف "منظمة جيدة التنظيم"، لتدريب "ثوريين أكفاء وذوي حيلة" من بين العمال المتقدمين والاشتراكيين، الأشخاص الذين سيرفعون حزب البروليتاريا إلى مستوى عالٍ من المناضلين الرائدين من أجل الديمقراطية والذين سيتمكنون من كسب جميع عناصر المعارضة إلى جانبهم.

لا يدرك محررو جريدة «فكر العمال» أنهم يقفون على منحدر وسوف يتدحرجون إلى الأول من هذين الاستنتاجين!

ومرة أخرى، يكتب ر. م.: "ما يدهشنا أكثر في هذه البرامج [أي في برامج الاشتراكيين-الديموقراطيين – لينين] هو أنه يولي باستمرار المركز الأول لفضائل الأنشطة البروليتارية في البرلمان [وهي غير موجودة في روسيا – لينين]، بينما تتجاهل تماما... أهمية مشاركة العمال "في المجالس التشريعية لأصحاب العمل، وفي مجالس المصانع، وفي الحكم الذاتي للبلدي (ص 15). إذا لم يتم إبراز فضائل البرلمان في الصدارة، فكيف سيتعلم العمال عن الحقوق السياسية والحرية السياسية؟ إذا التزمنا الصمت في هذه القضايا – مثلما تفعل جريدة «فضية العمال» – ألا يعني ذلك إدامة الجهل السياسي عند الفئة الدنيا من العمال؟ فيما يتعلق بمشاركة العمال في الحكم الذاتي البلدي، لم ينكر أي اشتراكي-ديموقراطي في أي مكان من أي مكان فضائل وأهمية أنشطة العمال الاشتراكيين في الحكم الذاتي البلدي. لكن من السخف أن نتحدث عن هذا في روسيا، حيث لا يوجد مظهر مفتوح للاشتراكية وحيث إن طرد العمال بحماس من أجل الحكم الذاتي للبلدي (حتى لو كان هذا ممكنا) سيعني في الواقع تشتيت انتباه العمال المتقدمين عن قضية البروليتاريا الاشتراكية نحو الليبرالية.

يقول م. ر.؛ "يمكن فهم موقف الفئة المتقدمة من العمال من هذه الحكومة [الأوتوقراطية] تماما مثلما يمكن فهم موقفهم من أصحاب المصانع".

وبالتالي، فإن وجهة النظر المنطقية في هذا هي أن الفئة المتقدمة من العمال ليست أقل وعيا طبقيا من الاشتراكيين-الديموقراطيين مثلما هو حال الاشتراكيين من بين مجموع المثقفين. لذا، فإن محاولة جريدة «فكر العمال» أن تفصل أحدهما عن الآخر أمر سخيف وغير معقول ومضر. وبناء على ذلك، أنتجت البروليتاريا الروسية العناصر الضرورية لتأليف حزب سياسي بروليتاري مستقل. لكن محرري جريدة «فكر العمال» يستخلصون من حقيقة الوعي السياسي عند الفئة المتقدمة من العمال استنتاجا مفاده... أنه من الضروري

كبح هذه العناصر المتقدمة حتى تبقى على قيد الحياة! إن السيد ر. م. يسأل: "ما هو النضال الذي من الأفضل أن يخوض العمال؟" ويجيب: النضال المرغوب فيه هو النضال الممكن، والنضال الممكن هو النضال الذي "يخوضه العمال في لحظة بعينها"!!! سيكون من الصعب التعبير بشكل أكثر وضوحا عن الانتهازية غير المنطقية وغير المبدئية التي أصيب بها محررو جريدة «فكر العمال» الذين أغرتهم موضة "البرنشتينية"! ما هو ممكن هو أمر مرغوب فيه، وما لدينا في لحظة بعينها هو ممكن! ومثل ذلك مثل رجل يسير في طريق طويل وصعب تنتظره فيه عديد العقبات وعديد الأعداء وقيل له إجابة على سؤاله "إلى أين أذهب؟": "من الأفضل أن تذهب إلى حيث يمكن الذهاب، ومن الممكن أن تذهب إلى حيث أنت ذاهب هذه اللحظة"! هذه عدمية خالصة وليست ثورية، لكن العدمية انتهازية إنما نجدها عند الفوضويين أو الليبراليين البرجوازيين! من خلال "دعوة" العمال الروس إلى الانخراط في نضال "جزئي" و"سياسي" (مع فهم النضال السياسي ليس على أنه نضال ضد الاستبداد، ولكن فقط على أنه "النضال لتحسين أوضاع جميع العمال")، في الواقع، يدعو ر. م. الحركة البروليتارية الروسية والاشتراكية-الديموقراطية الروسية إلى اتخاذ خطوة إلى الوراء، فهو يدعو العمال في الواقع إلى الانفصال عن الاشتراكيين-الديموقراطيين، وبالتالي التخلص من كل ما اكتسبوا من التجربتين الأوروبية والروسية! لا يحتاج العمال إلى اشتراكيين في نضالهم لتحسين أوضاعهم إذا كان ذلك هو نضالهم الوحيد. وفي جميع البلدان، يخوض العمال النضال في سبيل تحسين أوضاعهم، لكنهم لا يعرفون شيئا عن الاشتراكية أو حتى يعادونها.

كتب ر. م.: "في الختام، نقدم بضع كلمات عن مفهومنا عن الاشتراكية البروليتارية". بعد الذي قيل أعلاه، لن يجد القارئ صعوبة في تخيل نوع "التصور" الذي هو عليه. إنه مجرد نسخة من كتاب برنشتاين "على الموضة". إذ يستبدل "الشباب" من الاشتراكيين-الديموقراطيين نضال البروليتاريا الطبقي بـ "نشاط العمال لاجتماعي والسياسي المستقل". إذا تذكرنا كيف يفهم ر. م. "النضال" الاجتماعي و "السياسة"، فسيكون من الواضح أن هذه عودة مباشرة إلى "صيغة" بعض الكتاب القانونيين الروس. بدلا من الإشارة بدقة إلى هدف (وجوهر) الاشتراكية – نقل الأرض والمصانع وما إلى ذلك، بشكل عام، جميع وسائل

الإنتاج، إلى ملكية المجتمع بأسره واستبدال نمط الإنتاج الرأسمالي بطريقة إنتاج وفقا لخطة مشتركة لصالح جميع أفراد المجتمع – عوض كل هذا، يشير ر. م. أولا وقبل كل شيء إلى تطور النقابات المهنية وتعاونيات المستهلكين، ويقول، عرضا، أن الاشتراكية تؤدي إلى مشركة جميع وسائل الإنتاج. من ناحية أخرى، يكتب بخط بارز التأكيد: "الاشتراكية هي مجرد تطور إضافي وأعلى للمجتمع الحديث" – عبارة مستعارة من برنشتاين، والتي لا تفسر فقط بل حتى تحجب أهمية الاشتراكية وجوهرها. لا شك في أن جميع الليبراليين وكل البرجوازية يؤيدون "تطور المجتمع الحديث"، حتى يفرحوا جميعا بإعلان ر. م. ومع ذلك، فإن البرجوازيين هم أعداء الاشتراكية. النقطة المهمة هي أن "المجتمع الحديث" له العديد من الجوانب المتنوعة، وبالنسبة لأولئك الذين يستخدمون هذا التعبير العام، فإن البعض لديه جانب واحد والآخر جانب آخر.

وهكذا، عوض أن يشرح ر. م. للعمال مفهوم الصراع الطبقي والاشتراكية لا يقدم لهم سوى عبارات غامضة ومضللة. أخيرا، عوض أن يشير ر. م. إلى الوسائل التي تتقدم بها الاشتراكية المعاصرة لتحقيق الاشتراكية – ظفر البروليتاريا المنظمة بالسلطة السياسية –، فإنه يتحدث فقط عن وضع الإنتاج تحت إدارتهم (أي العمال) الاجتماعية أو تحت إدارة سلطة اجتماعية جرى إحلال الديمقراطية فيها "عبر مشاركتهم (أي العمال) النشطة في الهيئات التي تدرس جميع أنواع شؤون المصانع، في محاكم التحكيم، في جميع ما هو محتمل من الاجتماعات والهيئات والمؤتمرات لوضع قوانين العمل. وعبر مشاركة العمال في الحكم الذاتي العام، وأخيرا، في المؤسسة التمثيلية العامة للبلاد". وبهذه الطريقة فإن محرري جريدة «فكر العمال» يدرجون في الاشتراكية البروليتارية فقط ما يجب الحصول عليه على طول الطريق السلمي واستبعاد المسار الثوري: هذا التضييق في الاشتراكية واختزالها في الليبرالية البرجوازية العامة يمثل مرة أخرى خطوة هائلة إلى الوراء مقارنة بآراء كل الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس والأغلبية الساحقة من الاشتراكيين-الديموقراطيين الأوروبيين.

من الطبيعي أن تفضل البروليتاريا الاستيلاء على السلطة سلميا (ولقد كنا ذكرنا كيف أن هذا الاستيلاء على السلطة لا يمكن أن تنجزه إلا البروليتاريا المنظمة التي اجتازت مدرسة

النضال الطبقي)، ولكن نبذ الاستيلاء الثوري على السلطة سيكون جنونا من جانب البروليتاريا، من الناحيتين النظرية والعملية-السياسية. فلن يعني ذلك سوى التراجع المشين أمام البرجوازية وجميع الطبقات المالكة الأخرى. ومن المحتمل جدا، والأكبر احتمالا، ألا تقدم البرجوازية تنازلات سلمية للبروليتاريا، وستلجأ في اللحظة الحاسمة إلى العنف للدفاع عن امتيازاتها. ففي هذه الحالة، لن يبقى للبروليتاريا أي طريق آخر لتحقيق هدفها سوى طريق الثورة. ولهذا السبب كان برنامج "الاشتراكية البروليتارية" يتحدث عن كسب السلطة السياسية بشكل عام دون تحديد الطريقة لأن اختيار الطريق انما يعتمد على مستقبل لا يمكننا تحديده بدقة. لكننا نكرر بأن حصر نشاط البروليتاريا في أي ظرف من الظروف في "احلال الديمقراطية" السلمية على وجه الحصر، هو تعسف وتضييق لمفهوم الاشتراكية البروليتارية وابتذالها.

لن نحلل بقية مقالات الملحق المنفصل بمثل هذا التفصيل الكبير. فقد تناولنا ذلك في الذكرى العاشرة لوفاة تشيرنيشيفسكي. أما فيما يتعلق بالدعاية الموالية للبيرنشتاينية عند هيئة تحرير جريدة «فكر العمال»، وهي دعاية استغلها أعداء الاشتراكية في جميع أنحاء العالم، وبالأخص الليبراليون البرجوازيون، وعارضتها الغالبية العظمى من الاشتراكيين-الديمقراطيين الألمان والعمال الألمان الواعين طبقيا الذين عبروا عن ذلك بشكل حاسم (في مؤتمر هانوفر) – وليس هنا بالمكان المناسب للحديث عن البيرشتينية بالتفصيل. وإنما نحن مهتمون بالبيرشتينية الروسية، وقد بينا التشوش الذي لا حد له في الأفكار، وغياب أية آراء مستقلة، والخطوة الهائلة إلى الوراء، مقارنة بآراء الاشتراكية-الديموقراطية الروسية، التي تمثلها البرنشتيتنية "عندنا".

فيما يتعلق بالبرنشتاينية الألمانية، نفضل أن نفسح المجال للألمان أنفسهم ليهتموا بأمرها. ولنلاحظ فقط أن البرنشتاينية الروسية إنما هي أدنى من البرنشتاينية الألمانية بما لا يقاس. فبرنشتاين، ورغم أخطائه، ورغم ما بذل من الجهد للتراجع نظريا وسياسيا على حد سواء، فقد كان دوما على ذكاء كاف ووعي كاف حتى لا يقترح تغييرا في برنامج الاشتراكية-الديمقراطية الألمانية دون أن يكون هو نفسه قد توصل إلى نظرية جديدة أو برنامج جديد.

فكان أن أعلن في اللحظة الأخيرة والحاسمة موافقته على قرار بابل وهو قرار يعلن رسميا للعالم أن الاشتراكية-الديمقراطية الألمانية تتمسك ببرنامجها وتكتيكها القديمين. فما كان حال البرنشتاينيين الروس؟ إنهم، ودون أن يقوموا ولو بمقدار واحد من مائة مما قام به برنشتاين، بلغ بهم الأمر أن رفضوا الاعتراف بالواقع المتمثل في أن جميع المنظمات الاشتراكية-الديمقراطية الروسية كانت قد وضعت أسس حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي عام 1898، الذي نشر بيانه وأعلن «جريدة العمال» لسان حاله الرسمي، وأن تلك الوثائق في توافق تام مع برنامج الاشتراكيين-الديمقراطيين الروس «القديم». لذا، يبدو أن البرنشتاينيين عندنا ليسو واعين بأنهم تخلوا عن الأفكار القديمة وتبنوا أخرى جديدة. فمن واجبهم الأخلاقي (نحو الاشتراكية-الديمقراطية الروسية ونحو الاشتراكيين والعمال الروس الذين بذلوا كل جهدهم لإعداد حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي وتأسيسه، والذين معظمهم يملأ الآن السجون الروسية)، من واجب أولئك الذين يبشرون بالأفكار الجديدة ألا يعكفوا على تقريض "ثوريينا" بوجه عام في أماكن منزوية، بل أن يعلنوا، مباشرة وأمام العموم، مع من يختلفون وفيما يقوم الخلاف؟ وما هي هذه الأفكار الجديدة وما هو هذا البرنامج الجديد الذي يقدمون عوض القديم.

بقي سؤال آخر وجب تناوله، وأكبر الاحتمال أنه الأهم، وهو كيف نفسر ظهور مثل ذلك الاتجاه القهقرى في الاشتراكية-الديمقراطية الروسية؟ ونرى أن تفسير ذلك لا ينحصر فيما لدى محرري جريدة «فكر العمال» من ميزات شخصية أو في تأثير موضة البرنشتاينية. وإنما نعتقد أن ذلك يفسر أساسا بخصائص تطور الاشتراكية-الديمقراطية الروسية التاريخي الذي أفرز، وكان لا بد له من أن يفرز مؤقتا، فهما ضيقا للاشتراكية البروليتارية.

خلال العقد الثامن وبداية العقد التاسع، حين بدأ الاشتراكيون-الديمقراطيون نشاطهم العملي في روسيا، كانوا حينها في البداية في مواجهة منظمة «إرادة الشعب» التي تكفلت بدفعهم للخروج من النضال السياسي الموروث عن الحركة الثورية الروسية، والتي خاضوا ضدها جدالا ثابتا.

ثانيا. لقد واجه الاشتراكيون-الديمقراطيون الحلقات الليبرالية الروسية، التي كانت، أيضا، غاضبة من الانعطاف الذي قامت به الحركة الثورية من اتجاه منظمة «إرادة الشعب» نحو الاشتراكية-الديمقراطية. لقد تركز الجدال المزدوج على القضية السياسية.

لقد بلغ الأمر بالاشتراكيين-الديمقراطيين، وقتئذ، خلال نضالهم ضد المفاهيم الضيقة عند أعضاء منظمة «إرادة الشعب» التي تختزل السياسة في التآمر، حد انكار السياسة بوجه عام، بالنظر إلى ما كانت تعنيه السياسة في تلك المفاهيم الضيقة.

ومن ناحية أخرى، كثيرا ما كان الاشتراكيون-الديموقراطيون يسمعون، في صالونات "الوسط" البرجوازي الليبرالية والراديكالية، الأسف لتخلي الثوريين عن الإرهاب. فالناس الذين كانوا خائفين أشد الخوف على أنفسهم، وفشلوا، في لحظة حاسمة، في تقديم سند للأبطال الذين سددوا ضربات للأوتوقراطية، هم أنفسهم يتهمون، من باب النفاق، الاشتراكيين-الديموقراطيين باللامبالاة السياسية، ويأملون ولادة حزب جديد يعفيهم مشقة الجهد اللازم.

بطبيعة الحال، نشأت عند الاشتراكيين-الديموقراطيين كراهية تجاه أولئك الناس وحديثهم، وانصرفوا إلى أكثر أنشطة الدعاية بساطة، لكن أكثرها جدية، في صفوف البروليتاريا الصناعية. في البداية كان من المحتم أن يكون لهذا العمل طابعا ضيقا وأن يتجسد في الإعلانات الضيقة لبعض الاشتراكيين الديموقراطيين. لكن هذا الضيق لم يربك الاشتراكيين-الديموقراطيين الذين، على الأقل، لم ينسوا الأهداف التاريخية الكبرى للحركة البروليتارية الروسية. فلا يهم إن كان، أحيانا، معنى كلمات الاشتراكيين-الديموقراطيين ضيقا طالما كانت أنشطتهم تغطي مجالا واسعا. فهم لا ينساقون إلى المؤامرات ولا يتعاملون مع كذب البرجوازية الليبرالية. لكنهم يتوجهون إلى تلك الطبقة التي هي وحدها الطبقة الثورية حقا، ويساعدون على تطوير قواها! لقد اقتنعوا أن ذلك الضيق سيختفي من تلقاء نفسه مع كل خطوة توسع الدعاية الاشتراكية-الديموقراطية. وهذا ما حدث إلى حد كبير. لقد بدأوا بالدعاية وانتقلوا إلى التحريض على نطاق واسع.

لقد أدى انتشار التحريض، بطبيعة الحال، إلى ظهور عدد متزايد من العمال المتقدمين الواعين طبقيا. وبدأت المنظمات الثورية تتألف (سانت بطرسبرغ وكييف ورابطات النضال الأخرى، اتحاد العمال اليهود). وشرعت هذه المنظمات، تميل، بشكل طبيعي، إلى الاندماج. ونجحت في النهاية: لقد وحدت أسس حزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي. وكان يبدو أن الضيق القديم سيصبح دون أي أساس وسيتم التخلص منه تماما. لكن الأمور سارت على نحو مختلف: فانتشار التحريض جعل الاشتراكيين-الديموقراطيين في اتصال مع الفئات الدنيا والأقل تطورا من البروليتاريا. لجذب هذه الفئات، كان من الضروري للمحرض أن يكون قادرا على تكييف نفسه مع أدنى مستويات الفهم، وقد جرى تعليمه حتى يضع "مطالب ومصالح اللحظة المعنية" في المقدمة فيترك جانبا المثل العليا للاشتراكية والنضال السياسي.

الطبيعة المفككة والحرفية للنشاط الاشتراكي-الديموقراطي، والصلات الضعيفة للغاية فيما بين حلقات التثقيف في مختلف المدن وفيما بين الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس ورفاقهم في الخارج الذين يمتلكون معرفة أكثر عمقا وتجربة ثورية أكثر ثراء، فضلا عن أفق سياسي أوسع، – كل ذلك أدى بطبيعة الحال، إلى المبالغة الفادحة في هذا الجانب (وهو جوهري بصورة مطلقة) من النشاط الاشتراكي-الديموقراطي، الأمر الذي قد يؤدي ببعض الأفراد إلى إغفال الجوانب الأخرى، لا سيما أنه عند كل انعطاف كان يجري انتزاع أكثر العمال والمثقفين تقدما من صفوف الجيش المناضل، مما يمنع التقاليد الثورية الصلبة من التطور والاستمرار. وفي هذه المبالغة القصوى في أحد جوانب النشاط الاشتراكي-الديموقراطي نرى السبب الرئيسي للتراجع المؤسف عن المثل العليا للاشتراكية-الديموقراطية الروسية.

فإذا ما أضفنا إلى الحماس لكتاب يساير الموضة، الجهل بتاريخ الحركة الثورية الروسية والادعاء الطفولي للأصالة، سيكون لدينا كل العناصر التي تؤلف "اتجاه القهقرى في الاشتراكية-الديموقراطية الروسية".

لذا، سيكون علينا أن درس بأكبر تفصيل قضية العلاقة بين الفئة المتقدمة من البروليتاريا بتلك التي أقل تقدما منها، ومغزى النشاط الاشتراكي-الديمقراطي في صفوف تينك الفئتين من البروليتاريا.

يبين تاريخ الحركة البروليتارية في جميع البلدان الرأسمالية أن الفئات الأكثر رفاهية من البروليتاريا تهتم بالأفكار الاشتراكية على نحو أسرع وأسهل. ومن ضمنهم يبرز أساسا العمال المتقدمون الذين تضعهم كل حركة بروليتارية في المقدمة، فهم الذين يستطيعون كسب ثقة الجماهير البروليتارية، وهم الذين يسخرون أنفسهم بالكامل لتثقيف البروليتاريا وتنظيمها، فهم الذين يقبلون بالاشتراكية عن وعي، ويصوغون حتى نظريات اشتراكية مستقلة. وما من حركة بروليتارية حية إلا ووضعت من صلب البروليتاريا أمثال أولئك القادة في الصدارة، قادة خاصين بها على طراز برودون وفاين وويتلينغ وبابل. وإن حركتنا البروليتارية الروسية لتعدنا بألا تظل في مؤخرة الحركة البروليتارية الأوروبية في هذا المجال. ففي الوقت الذي ينعدم فيه اهتمام الفئات المتعلمة بالأدب الصادق غير القانوني، تتعاظم في صفوف العمال الرغبة الشديدة في المعرفة والاشتراكية، ويبرز في الصدارة أبطال حقيقيون من بين العمال رغم ظروف عيشهم البائسة، ورغم العبودية الجزائية الجاثمة على العمل في المصنع، ويمتلكون شخصية عظيمة وإرادة قوية حتى أنهم يدرسون ويدرسون ويدرسون ويحولون أنفسهم إلى اشتراكيين-ديموقراطيين واعين، إلى "مثقفي البروليتاريا". و"مثقفو البروليتاريا" أولئك موجودون بالفعل في روسيا، وعلينا أن نبذل قصارى جهدنا حتى نضمن تعزيز صفوفهم بانتظام، وتلبية حاجاتهم الفكرية النبيلة، وأن يكون قادة حزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي قادمين من صفوفهم.

إن جريدة ترمي إلى أن تصبح لسان حال جميع الاشتراكيين-الديمقراطيين الروس إنما يجب أن تكون في مستوى العمال المتقدمين. لذا، يجب عليها، لا ألا تتصنع الحط من مستواها فحسب، بل عليها، بالعكس، أن ترتقي به على الدوام، وأن تتابع جميع قضايا التكتيك والسياسة والنظرية عند الاشتراكية-الديمقراطية العالمية. وحينئذ فقط يمكن أن تلبى

مطالب مثقفي البروليتاريا وأن يضعوا قضية العمال الروس، وبالتالي قضية الثورة الروسية في أيديهم.

يلي الفئة قليلة العدد من العمال المتقدمين، فئة كبيرة من العمال المتوسطين. وهم أيضا يناضلون بشجاعة كبيرة في سبيل الاشتراكية، ويشاركون في حلقات تثقيف العمال، ويقرؤون الجرائد والكتب الاشتراكية، ويشاركون في التحريض، ولا يختلفون عن الفئة الأولى إلا بكونهم لا يستطيعون أن يصبحوا قادة للحركة البروليتارية الاشتراكية-الديمقراطية مستقلين تماما.

لن يفهم العامل المتوسط بعض مقالات الجريدة التي ترمي إلى أن تصبح لسان حال الحزب. كما لن يستوعب على نحو كاف فضية معقدة نظرية كانت أو عملية. ولا يعني هذا الأمر أبدا أن على الجريدة أن تحط من مستواها حتى يوافق مستوى قرائها. بالعكس، يجب على الجريدة أن ترتقي بمستواهم وأن تساعد على انتداب عمال متقدمين من صلب فئة العمال المتوسطين.

فأولئك العمال وقد انغمسوا في النشاط العملي اليومي واهتموا أساسا بأحداث الحركة العمالية وقضايا التحريض المباشرة، إنما يجب أن يربطوا كل نشاط من نشاطاتهم بمجمل فكر الحركة البروليتارية الروسية، بمهماتها التاريخية وبهدف الاشتراكية الأساسي. فعلى هذا النحو، تربط الجريدة، التي معضم جمهور قرائها عمال متوسطون، الاشتراكية والنضال السياسي بكل قضية محلية وضيقة.

وأخيرا، بعد فئة العمال المتوسطين، هنالك الجماهير التي تؤلف أدنى فئة من البروليتاريا. ومن الممكن جدا أن تكون جريدة اشتراكية غير مفهومة تماما، أو تقريبا كذلك، عند هذه الفئة (فحتى في أوروبا الغربية نجد عدد ناخبي الاشتراكيين-الديمقراطيين يفوق بكثير عدد قراء الصحافة الاشتراكية-الديمقراطية). لكن سيكون من الغباء أن نستنتج من ذلك أن على جريدة الاشتراكيين-الديمقراطيين ان تلائم أدنى مستوى ممكن عند العمال. فالأمر الوحيد الذي يمكن أن نستنتجه من ذلك هو أن نمارس عدة اشكال من الدعاية والتحريض في صفوف هذه الفئة (كراسات محررة بلغة شعبية بسيطة، تحريض شفوي، وبالأخص

كراسات حول الأحداث المحلية). ولا يجب أن ينحصر نشاط الاشتراكيين-الديمقراطيين في ذلك. فأكبر الاحتمالات أن تكتسي أول خطوة لإيقاظ وعي الفئة الدنيا من البروليتاريا شكل نشاط تثقيفي علني. وإنه لأمر في غاية الأهمية أن يستخدم الحزب هذا النشاط، وأن يوجهه في الاتجاه الأكثر ضرورة، وأن يرسل عمالا، بطريقة قانونية، ليهؤوا مجالات جديدة لنشاط المحرضين الاشتراكيين-الديمقراطيين. والتحريض في صفوف الفئة الدنيا من البروليتاريا يوفر، بطبيعة الحال، أوسع مجال لخصائص المحرض الشخصية، ولخصائص الجهة، والنقابة المعنية، الخ. لقد قال كاوتسكي، في كتابه ضد برنشتاين: "لا يجب الخلط بين التكتيك والتحريض. يجب تكييف طرق التحريض مع الظروف الشخصية والمحلية. يجب أن يسمح لكل محرض أن يختار طرق التحريض مما اكتسب. فيمكن لهذا المحرض أن يثير انتباها كبيرا بحماسته، وثان بسخريته اللاذعة وثالث بقدرته على إثارة الكثير من التتبعات، الخ. ومثلما يتكيف التحريض مع المحرض، فإنه يتكيف أيضا مع الجمهور. فإن خطب المحرض فلكي يفهمه الجمهور. لذا، يجب أن تكون نقطة بداية الحديث أمرا معلوما جيدا عند الجمهور. وكل ذلك بديهي ولا ينطبق فقط على التحريض في صفوف الفلاحين. فيجب أن تكون مخاطبة أصحاب الحرف غير مخاطبة البحارة، ومخاطبة البحارة غير مخاطبة عمال الطباعة. يجب أن يكون التحريض ذا طابع شخصي. لكن تكتيكنا ونشاطنا السياسيين يجب أن يكونا موحدين" (س. 2-3). هذه الكلمات لممثل بارز لنظرية الاشتراكية-الديمقراطية، تحتوي تقييما رائعا للتحريض كجزء من النشاط العام للحزب. تماما كما تبين هذه الكلمات كم أن مخاوف أولئك الذين يعتقدون أن تأليف حزب ثوري لقيادة النضال السياسي سيدفع نحو ترك التحريض جانبا وسيقلص من حرية المحرضين، هي مخاوف لا أساس لها. بالعكس، لا يمكن إلا لحزب منظم أن ينجز تحريضا واسع النطاق، وأن يوفر ما يلزم المحرضين من توجيه ومواد تخص جميع القضايا الاقتصادية والسياسية، وأن يستفيد من كل نجاح تحريضي محلي لتعليم جميع العمال الروس، وأن يرسل المحرضين إلى تلك الأماكن وفي تلك البيئة حيث يمكنهم العمل بأكبر قدر من النجاح. فقط في الحزب المنظم تستطيع العناصر التي تمتلك المؤهلات للنشاط كمحرضين أن تكرس حياتها بأكملها لهذه المهمة - لصالح التحريض وغيره من النواحي الأخرى في النشاط الاشتراكي-

الديموقراطي. من هذا يتبين أن من ينسى التحريض الدعاية السياسيين بسبب النضال الاقتصادي، ومن ينسى ضرورة تنظيم حركة البروليتاريا في نصال حزب سياسي، فإنه، وبغض النظر عن كل أمر آخر، إنما يحرم نفسه حتى من فرصة اجتذاب الفئات الدنيا من البروليتاريا إلى قضية البروليتاريا بنجاح وثبات.

لكن مثل هذه المبالغة في جانب واحد من أنشطتنا على حساب الجوانب الأخرى، وحتى الرغبة في إغفال الجوانب الأخرى، إنما هي محفوفة بعواقب وخيمة على حركة البروليتاريا الروسية. بل إن الفئات الدنيا من البروليتاريا قد تصاب بالإحباط بسبب افتراءات من قبيل أن مؤسسي الاشتراكية-الديموقراطية الروسية يريدون فقط استخدام العمال لإسقاط الأوتوقراطية، من خلال الدعوات ليقتصروا على استعادة الأعياد والنقابات المهنية، دون الاهتمام بالأهداف النهائية للاشتراكية والمهام الفورية للنضال السياسي. قد يقع (وسيظل) هؤلاء العمال دوما في فخ أية خدع تقدمها الحكومة أو البرجوازية.

قد تقع الفئات الدنيا من البروليتاريا، أي العمال غير المتطورين، تحت تأثير تبشير جريدة «فكر العمال»، ضحية للفكرة البرجوازية والرجعية للغاية ومفادها أن العامل لا يمكنه ولا يجب عليه أن يهتم بأي شيء سوى زيادة الأجور وإعادة الأعياد ("مصالح اللحظة")، وأن العمال يستطيعون ويجب عليهم أن يديروا نضال العمال من خلال جهودهم الخاصة وحدها، من خلال "مبادرتهم الخاصة"، دون محاولة دمجها بالاشتراكية، وألا يسعوا إلى تحويل حركة البروليتاريا إلى قضية أساسية متقدمة للبشرية جمعاء. لذا، نكرر أن مثل هذه الفكرة قد تحبط معنويات العمال الأكثر تأخرا. لكننا على ثقة من أن العمال الروس المتقدمين، أولئك الذين يوجهون حلقات التثقيف العمالية وكل النشاط الاشتراكي-الديموقراطي، أولئك الذين يملأون اليوم سجوننا وأماكن نفينا، (من محافظة رئيس الملائكة إلى سيبيريا الشرقية)، أن هؤلاء العمال سيرفضون مثل هذه النظرية بسخط. إن اختزال الحركة بأكملها في مصالح اللحظة يعني المراهنة على الحالة المتأخرة عند العمال، يعني تلبية أسوأ ميولهم. إنه يعني قطع الصلة بين الحركة البروليتارية والاشتراكية بصورة مصطنعة، بين النضالات السياسية المحددة بالكامل للعمال المتقدمين والمظاهر العفوية للاحتجاج من جانب الجماهير.

وبالتالي، فإن محاولة جريدة «فكر العمال» إدخال اتجاه خاص تستحق اهتماما خاصا وتدعو إلى احتجاج قوي.

طالما أن جريدة «فكر العمال»، وهي تكيف نفسها، على ما يبدو، مع الفئات الدنيا من البروليتاريا، وتتجنب بصلف قضية هدف الاشتراكية والنضال السياسي النهائي، دون أن تعلن اتجاهها الخاص، فإن العديد من الاشتراكيين-الديموقراطيين قاموا بإيماءة برؤوسهم فقط، آملين أن يتخلص أعضاء مجموعة «فكر العمال» من ضيقهم خلال تطور عملهم وتوسيع نطاقه.

لكن، عندما بدأ الناس الذين، حتى الآن، أدوا العمل اللازم لمستوى تحضيري بحثا عن نظريات انتهازية على الموضة ويصمون آذان أوروبا بالإعلان عن نيتهم وضع الاشتراكية-الديموقراطية الروسية بأكملها في مستوى تحضيري طيلة سنوات عديدة (إن لم يكن ذلك إلى الأبد)، بعبارة أخرى، عندما يشرع الأشخاص الذين ما زالوا حتى الآن يعملون بشكل مفيد على ملإ برميل عسلا، و"على مرأى من الجمهور"، في إتلاف ذلك البرميل بصبات من القطران، فعندها يكون الوقت قد حان كي نقف على نحو حاسم ضد اتجاه القهقرى هذا!

لقد اعترفت الاشتراكية-الديموقراطية الروسية، من خلال مؤسسيها وأعضاء فرقة «تحرير العمل» ومن خلال المنظمات الاشتراكية-الديموقراطية الروسية التي أسست حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي الروسي، دوما بالمبدأين التاليين: 1) جوهر الاشتراكية-الديموقراطية هو تنظيم نضال البروليتاريا الطبقي قصد كسب السلطة السياسية، ونقل جميع وسائل الإنتاج إلى المجتمع ككل، والاستعاضة عن الرأسمالية بالاقتصاد الاشتراكي. 2) مهمة الاشتراكية-الديموقراطية الروسية هي تنظيم حزب البروليتاريا الثوري الروسي الذي يهدف مباشرة إلى إسقاط الأوتوقراطية والظفر بالحرية السياسية. وكل من يبتعد عن هذين المبدأين الأساسيين (اللذان صيغا بدقة في برنامج فرقة «تحرير العمل» وتجسدا في بيان حزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي) إنما يغادر الاشتراكية-الديموقراطية.

– تم –

يقول م. ر.؛ "يمكن فهم موقف الفئة المتقدمة من العمال من هذه الحكومة [الأوتوقراطية] تماما مثلما يمكن فهم موقفهم من أصحاب المصانع". وبالتالي، فإن وجهة النظر المنطقية في هذا هي أن الفئة المتقدمة من العمال ليست أقل وعيا طبقيا من الاشتراكيين-الديموقراطيين مثلما هو حال الاشتراكيين من بين مجموع المثقفين. لذا، فإن محاولة جريدة «فكر العمال» أن تفصل أحدهما عن الآخر أمر سخيف وغير معقول ومضر. وبناء على ذلك، أنتجت البروليتاريا الروسية العناصر الضرورية لتأليف حزب سياسي بروليتاري مستقل. لكن محرري جريدة «فكر العمال» يستخلصون من حقيقة الوعي السياسي عند الفئة المتقدمة من العمال استنتاجا مفاده... أنه من الضروري كبح هذه العناصر المتقدمة حتى تبقى على قيد الحياة! إن السيد ر. م. يسأل: "ما هو النضال الذي من الأفضل أن يخوض العمال؟" ويجيب: النضال المرغوب فيه هو النضال الممكن، والنضال الممكن هو النضال الذي "يخوضه العمال في لحظة بعينها"!!! سيكون من الصعب التعبير بشكل أكثر وضوحا عن الانتهازية غير المنطقية وغير المبدئية التي أصيب بها محررو جريدة «فكر العمال» الذين أغرتهم موضة "البرنشتينية"! ما هو ممكن هو أمر مرغوب فيه، وما لدينا في لحظة بعينها هو ممكن! ومثل ذلك مثل رجل يسير في طريق طويل وصعب تنتظره فيه عديد العقبات وعديد الأعداء وقيل له إجابة على سؤاله "إلى أين أذهب؟": "من الأفضل أن تذهب إلى حيث يمكن الذهاب، ومن الممكن أن تذهب إلى حيث أنت ذاهب هذه اللحظة"! هذه عدمية خالصة وليست ثورية، لكن العدمية انتهازية إنما نجدها عند الفوضويين أو الليبراليين البرجوازيين! من خلال "دعوة" العمال الروس إلى الانخراط في نضال "جزئي" و"سياسي" (مع فهم النضال السياسي ليس على أنه نضال ضد الاستبداد، ولكن فقط على أنه "النضال لتحسين أوضاع جميع العمال")، في الواقع، يدعو ر. م. الحركة البروليتارية الروسية والاشتراكية-الديموقراطية الروسية إلى اتخاذ خطوة إلى الوراء، فهو يدعو العمال في الواقع إلى الانفصال عن الاشتراكيين-الديموقراطيين، وبالتالي التخلص من كل ما اكتسبوا من التجربتين الأوروبية والروسية! لا يحتاج العمال إلى اشتراكيين في نضالهم لتحسين أوضاعهم إذا كان ذلك هو نضالهم الوحيد. وفي جميع البلدان، يخوض العمال النضال في سبيل

تحسين أوضاعهم، لكنهم لا يعرفون شيئا عن الاشتراكية أو حتى يعادونها. كتب ر. م.: "في الختام، نقدم بضع كلمات عن مفهومنا عن الاشتراكية البروليتارية". بعد الذي قيل أعلاه، لن يجد القارئ صعوبة في تخيل نوع "التصور" الذي هو عليه. إنه مجرد نسخة من كتاب برنشتاين "على الموضة". إذ يستبدل "الشباب" من الاشتراكيين-الديموقراطيين نضال البروليتاريا الطبقي بـ "نشاط العمال لاجتماعي والسياسي المستقل". إذا تذكرنا كيف يفهم ر. م. "النضال" الاجتماعي و "السياسة"، فسيكون من الواضح أن هذه عودة مباشرة إلى "صيغة" بعض الكتاب القانونيين الروس. بدلا من الإشارة بدقة إلى هدف (وجوهر) الاشتراكية – نقل الأرض والمصانع وما إلى ذلك، بشكل عام، جميع وسائل الإنتاج، إلى ملكية المجتمع بأسره واستبدال نمط الإنتاج الرأسمالي بطريقة إنتاج وفقا لخطة مشتركة لصالح جميع أفراد المجتمع – عوض كل هذا، يشير ر. م. أولا وقبل كل شيء إلى تطور النقابات المهنية وتعاونيات المستهلكين، ويقول، عرضا، أن الاشتراكية تؤدي إلى مشركة جميع وسائل الإنتاج. من ناحية أخرى، يكتب بخط بارز التأكيد: "الاشتراكية هي مجرد تطور إضافي وأعلى للمجتمع الحديث" – عبارة مستعارة من برنشتاين، والتي لا تفسر فقط بل حتى تحجب أهمية الاشتراكية وجوهرها. لا شك في أن جميع الليبراليين وكل البرجوازية يؤيدون "تطور المجتمع الحديث"، حتى يفرحوا جميعا بإعلان ر. م. ومع ذلك، فإن البرجوازيين هم أعداء الاشتراكية. النقطة المهمة هي أن "المجتمع الحديث" له العديد من الجوانب المتنوعة، وبالنسبة لأولئك الذين يستخدمون هذا التعبير العام، فإن البعض لديه جانب واحد والآخر جانب آخر. وهكذا، عوض أن يشرح ر. م. للعمال مفهوم الصراع الطبقي والاشتراكية لا يقدم لهم سوى عبارات غامضة ومضللة. أخيرا، عوض أن يشير ر. م. إلى الوسائل التي تتقدم بها الاشتراكية المعاصرة لتحقيق الاشتراكية – ظفر البروليتاريا المنظمة بالسلطة السياسية –، فإنه يتحدث فقط عن وضع الإنتاج تحت إدارتهم (أي العمال) الاجتماعية أو تحت إدارة سلطة اجتماعية جرى إحلال الديمقراطية فيها "عبر مشاركتهم (أي العمال) النشطة في الهيئات التي تدرس جميع أنواع شؤون المصانع، في محاكم التحكيم، في جميع ما هو محتمل من الاجتماعات والهيئات والمؤتمرات لوضع قوانين العمل. وعبر مشاركة العمال في الحكم الذاتي العام، وأخيرا، في المؤسسة التمثيلية العامة

للبلاد". وبهذه الطريقة فإن محرري جريدة «فكر العمال» يدرجون في الاشتراكية البروليتارية فقط ما يجب الحصول عليه على طول الطريق السلمي واستبعاد المسار الثوري: هذا التضييق في الاشتراكية واختزالها في الليبرالية البرجوازية العامة يمثل مرة أخرى خطوة هائلة إلى الوراء مقارنة بآراء كل الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس والأغلبية الساحقة من الاشتراكيين-الديموقراطيين الأوروبيين. من الطبيعي أن تفضل البروليتاريا الاستيلاء على السلطة سلميا (ولقد كنا ذكرنا كيف أن هذا الاستيلاء على السلطة لا يمكن أن تنجزه إلا البروليتاريا المنظمة التي اجتازت مدرسة النضال الطبقي)، ولكن نبذ الاستيلاء الثوري على السلطة سيكون جنونا من جانب البروليتاريا، من الناحيتين النظرية والعملية-السياسية. فلن يعني ذلك سوى التراجع المشين أمام البرجوازية وجميع الطبقات المالكة الأخرى. ومن المحتمل جدا، والأكبر احتمالا، ألا تقدم البرجوازية تنازلات سلمية للبروليتاريا، وستلجأ في اللحظة الحاسمة إلى العنف للدفاع عن امتيازاتها. ففي هذه الحالة، لن يبقى للبروليتاريا أي طريق آخر لتحقيق هدفها سوى طريق الثورة. ولهذا السبب كان برنامج "الاشتراكية البروليتارية" يتحدث عن كسب السلطة السياسية بشكل عام دون تحديد الطريقة لأن اختيار الطريق انما يعتمد على مستقبل لا يمكننا تحديده بدقة. لكننا نكرر بأن حصر نشاط البروليتاريا في أي ظرف من الظروف في "احلال الديمقراطية" السلمية على وجه الحصر، هو تعسف وتضييق لمفهوم الاشتراكية البروليتارية وابتذالها. لن نحلل بقية مقالات الملحق المنفصل بمثل هذا التفصيل الكبير. فقد تناولنا ذلك في الذكرى العاشرة لوفاة تشيرنيشيفسكي. أما فيما يتعلق بالدعاية الموالية للبيرنشتاينية عند هيئة تحرير جريدة «فكر العمال»، وهي دعاية استغلها أعداء الاشتراكية في جميع أنحاء العالم، وبالأخص الليبراليون البرجوازيون، وعارضتها الغالبية العظمى من الاشتراكيين-الديمقراطيين الألمان والعمال الألمان الواعين طبقيا الذين عبروا عن ذلك بشكل حاسم (في مؤتمر هانوفر) – وليس هنا بالمكان المناسب للحديث عن البيرشتينية بالتفصيل. وإنما نحن مهتمون بالبيرشتينية الروسية، وقد بينا التشوش الذي لا حد له في الأفكار، وغياب أية آراء مستقلة، والخطوة الهائلة إلى الوراء، مقارنة بآراء الاشتراكية-الديموقراطية الروسية، التي تمثلها البرنشتيتنية "عندنا". فيما يتعلق بالبرنشتاينية الألمانية، نفضل أن نفسح المجال

للألمان أنفسهم ليهتموا بأمرها. ولنلاحظ فقط أن البرنشتاينية الروسية إنما هي أدنى من البرنشتاينية الألمانية بما لا يقاس. فبرنشتاين، ورغم أخطائه، ورغم ما بذل من الجهد للتراجع نظريا وسياسيا على حد سواء، فقد كان دوما على ذكاء كاف ووعي كاف حتى لا يقترح تغييرا في برنامج الاشتراكية-الديمقراطية الألمانية دون أن يكون هو نفسه قد توصل إلى نظرية جديدة أو برنامج جديد. فكان أن أعلن في اللحظة الأخيرة والحاسمة موافقته على قرار بابل وهو قرار يعلن رسميا للعالم أن الاشتراكية-الديمقراطية الألمانية تتمسك ببرنامجها وتكتيكها القديمين. فما كان حال البرنشتاينيين الروس؟ إنهم، ودون أن يقوموا ولو بمقدار واحد من مائة مما قام به برنشتاين، بلغ بهم الأمر أن رفضوا الاعتراف بالواقع المتمثل في أن جميع المنظمات الاشتراكية-الديمقراطية الروسية كانت قد وضعت أسس حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي عام 1898، الذي نشر بيانه وأعلن «جريدة العمال» لسان حاله الرسمي، وأن تلك الوثائق في توافق تام مع برنامج الاشتراكيين-الديمقراطيين الروس «القديم». لذا، يبدو أن البرنشتاينيين عندنا ليسو واعين بأنهم تخلوا عن الأفكار القديمة وتبنوا أخرى جديدة. فمن واجبهم الأخلاقي (نحو الاشتراكية-الديمقراطية الروسية ونحو الاشتراكيين والعمال الروس الذين بذلوا كل جهدهم لإعداد حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي وتأسيسه، والذين معظمهم يملأ الآن السجون الروسية)، من واجب أولئك الذين يبشرون بالأفكار الجديدة ألا يعكفوا على تقريض "ثوريينا" بوجه عام في أماكن منزوية، بل أن يعلنوا، مباشرة وأمام العموم، مع من يختلفون وفيما يقوم الخلاف؟ وما هي هذه الأفكار الجديدة وما هو هذا البرنامج الجديد الذي يقدمون عوض القديم. بقي سؤال آخر وجب تناوله، وأكبر الاحتمال أنه الأهم، وهو كيف نفسر ظهور مثل هذا الاتجاه القهقرى في الاشتراكية-الديمقراطية الروسية؟ ونرى أن تفسير ذلك لا ينحصر فيما لدى محرري جريدة «فكر العمال» من ميزات شخصية أو في تأثير موضة البرنشتاينية. وإنما نعتقد أن ذلك يفسر أساسا بخصائص تطور الاشتراكية-الديمقراطية الروسية التاريخي الذي أفرز، وكان لا بد له من أن يفرز مؤقتا، فهما ضيقا للاشتراكية البروليتارية. خلال العقد الثامن وبداية العقد التاسع، حين بدأ الاشتراكيون-الديمقراطيون نشاطهم العملي في روسيا، كانوا حينها في البداية في مواجهة منظمة «إرادة الشعب» التي تكفلت بدفعهم

للخروج من النضال السياسي الموروث عن الحركة الثورية الروسية، والتي خاضوا ضدها جدالا ثابتا. ثانيا. لقد واجه الاشتراكيون-الديمقراطيون الحلقات الليبرالية الروسية، التي كانت، أيضا، غاضبة من الانعطاف الذي قامت به الحركة الثورية من اتجاه منظمة «إرادة الشعب» نحو الاشتراكية-الديمقراطية. لقد تركز الجدال المزدوج على القضية السياسية. لقد بلغ الأمر بالاشتراكيين-الديمقراطيين، وقتئذ، خلال نضالهم ضد المفاهيم الضيقة عند أعضاء منظمة «إرادة الشعب» التي تختزل السياسة في التآمر، حد انكار السياسة بوجه عام، بالنظر إلى ما كانت تعنيه السياسة في تلك المفاهيم الضيقة. ومن ناحية أخرى، كثيرا ما كان الاشتراكيون-الديموقراطيون يسمعون، في صالونات "الوسط" البرجوازي الليبرالية والراديكالية، الأسف لتخلي الثوريين عن الإرهاب. فالناس الذين كانوا خائفين أشد الخوف على أنفسهم، وفشلوا، في لحظة حاسمة، في تقديم سند للأبطال الذين سددوا ضربات للأوتوقراطية، هم أنفسهم يتهمون، من باب النفاق، الاشتراكيين-الديموقراطيين باللامبالاة السياسية، ويأملون ولادة حزب جديد يعفيهم مشقة الجهد اللازم. بطبيعة الحال، نشأت عند الاشتراكيين-الديموقراطيين كراهية تجاه أولئك الناس وحديثهم، وانصرفوا إلى أكثر أنشطة الدعاية بساطة، لكن أكثرها جدية، في صفوف البروليتاريا الصناعية. في البداية كان من المحتم أن يكون لهذا العمل طابعا ضيقا وأن يتجسد في الإعلانات الضيقة لبعض الاشتراكيين الديموقراطيين. لكن هذا الضيق لم يربك الاشتراكيين-الديموقراطيين الذين، على الأقل، لم ينسوا الأهداف التاريخية الكبرى للحركة البروليتارية الروسية. فلا يهم إن كان، أحيانا، معنى كلمات الاشتراكيين-الديموقراطيين ضيقا طالما كانت أنشطتهم تغطي مجالا واسعا. فهم لا ينساقون إلى المؤامرات ولا يتعاملون مع كذب البرجوازية الليبرالية. لكنهم يتوجهون إلى تلك الطبقة التي هي وحدها الطبقة الثورية حقا، ويساعدون على تطوير قواها! لقد اقتنعوا أن ذلك الضيق سيختفي من تلقاء نفسه مع كل خطوة توسع الدعاية الاشتراكية-الديموقراطية. وهذا ما حدث إلى حد كبير. لقد بدأوا بالدعاية وانتقلوا إلى التحريض على نطاق واسع. لقد أدى انتشار التحريض، بطبيعة الحال، إلى ظهور عدد متزايد من العمال المتقدمين الواعين طبقيا. وبدأت المنظمات الثورية تتألف (سانت بطرسبرغ وكييف ورابطات النضال الأخرى، اتحاد العمال اليهود). وشرعت هذه المنظمات، تميل،

بشكل طبيعي، إلى الاندماج. ونجحت في النهاية: لقد وحدت أسس حزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي. وكان يبدو أن الضيق القديم سيصبح دون أي أساس وسيتم التخلص منه تماما. لكن الأمور سارت على نحو مختلف: فانتشار التحريض جعل الاشتراكيين-الديموقراطيين في اتصال مع الفئات الدنيا والأقل تطورا من البروليتاريا. لجذب هذه الفئات، كان من الضروري للمحرض أن يكون قادرا على تكييف نفسه مع أدنى مستويات الفهم، وقد جرى تعليمه حتى يضع "مطالب ومصالح اللحظة المعنية" في المقدمة فيترك جانبا المثل العليا للاشتراكية والنضال السياسي. الطبيعة المفككة والحرفية للنشاط الاشتراكي-الديموقراطي، والصلات الضعيفة للغاية فيما بين حلقات التثقيف في مختلف المدن وفيما بين الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس ورفاقهم في الخارج الذين يمتلكون معرفة أكثر عمقا وتجربة ثورية أكثر ثراء، فضلا عن أفق سياسي أوسع، – كل ذلك أدى بطبيعة الحال، إلى المبالغة الفادحة في هذا الجانب (وهو جوهري بصورة مطلقة) من النشاط الاشتراكي-الديموقراطي، الأمر الذي قد يؤدي ببعض الأفراد إلى إغفال الجوانب الأخرى، لا سيما أنه عند كل انعطاف كان يجري انتزاع أكثر العمال والمثقفين تقدما من صفوف الجيش المناضل، مما يمنع التقاليد الثورية الصلبة من التطور والاستمرار. وفي هذه المبالغة القصوى في أحد جوانب النشاط الاشتراكي-الديموقراطي نرى السبب الرئيسي للتراجع المؤسف عن المثل العليا للاشتراكية-الديموقراطية الروسية. فإذا ما أضفنا إلى الحماس لكتاب يساير الموضة، الجهل بتاريخ الحركة الثورية الروسية والادعاء الطفولي للأصالة، سيكون لدينا كل العناصر التي تؤلف "الاتجاه االقهقرى في الاشتراكية-الديموقراطية الروسية". لذا، سيكون علينا أن درس بأكبر تفصيل قضية العلاقة بين الفئة المتقدمة من البروليتاريا بتلك التي أقل تقدما منها، ومغزى النشاط الاشتراكي-الديمقراطي في صفوف تينك الفئتين من البروليتاريا. يبين تاريخ الحركة البروليتارية في جميع البلدان الرأسمالية أن الفئات الأكثر رفاهية من البروليتاريا تهتم بالأفكار الاشتراكية على نحو أسرع وأسهل. ومن ضمنهم يبرز أساسا العمال المتقدمون الذين تضعهم كل حركة بروليتارية في المقدمة، فهم الذين يستطيعون كسب ثقة الجماهير البروليتارية، وهم الذين يسخرون أنفسهم بالكامل لتثقيف البروليتاريا وتنظيمها، فهم الذين يقبلون بالاشتراكية عن وعي،

ويصوغون حتى نظريات اشتراكية مستقلة. وما من حركة بروليتارية حية إلا ووضعت من صلب البروليتاريا أمثال أولئك القادة في الصدارة، قادة خاصين بها على طراز برودون وفاين وويتلينغ وبابل. وإن حركتنا البروليتارية الروسية لتعدنا بألا تظل في مؤخرة الحركة البروليتارية الأوروبية في هذا المجال. ففي الوقت الذي ينعدم فيه اهتمام الفئات المتعلمة بالأدب الصادق غير القانوني، تتعاظم في صفوف العمال الرغبة الشديدة في المعرفة والاشتراكية، ويبرز في الصدارة أبطال حقيقيون من بين العمال رغم ظروف عيشهم البائسة، ورغم العبودية الجزائية الجاثمة على العمل في المصنع، ويمتلكون شخصية عظيمة وإرادة قوية حتى أنهم يدرسون ويدرسون ويدرسون ويحولون أنفسهم إلى اشتراكيين-ديموقراطيين واعين، إلى "مثقفي البروليتاريا". و"مثقفو البروليتاريا" أولئك موجودون بالفعل في روسيا، وعلينا أن نبذل قصارى جهدنا حتى نضمن تعزيز صفوفهم بانتظام، وتلبية حاجاتهم الفكرية النبيلة، وأن يكون قادة حزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي قادمين من صفوفهم. إن جريدة ترمي إلى أن تصبح لسان حال جميع الاشتراكيين-الديمقراطيين الروس إنما يجب أن تكون في مستوى العمال المتقدمين. لذا، يجب عليها، لا ألا تتصنع الحط من مستواها فحسب، بل عليها، بالعكس، أن ترتقي به على الدوام، وأن تتابع جميع قضايا التكتيك والسياسة والنظرية عند الاشتراكية-الديمقراطية العالمية. وحينئذ فقط يمكن أن تلبى مطالب مثقفي البروليتاريا وأن يضعوا قضية العمال الروس، وبالتالي قضية الثورة الروسية في أيديهم. يلي الفئة قليلة العدد من العمال المتقدمين، فئة كبيرة من العمال المتوسطين. وهم أيضا يناضلون بشجاعة كبيرة في سبيل الاشتراكية، ويشاركون في حلقات تثقيف العمال، ويقرؤون الجرائد والكتب الاشتراكية، ويشاركون في التحريض، ولا يختلفون عن الفئة الأولى إلا بكونهم لا يستطيعون أن يصبحوا قادة للحركة البروليتارية الاشتراكية-الديمقراطية مستقلين تماما. لن يفهم العامل المتوسط بعض مقالات الجريدة التي ترمي إلى أن تصبح لسان حال الحزب. كما لن يستوعب على نحو كاف فضية معقدة نظرية كانت أو عملية. ولا يعني هذا الأمر أبدا أن على الجريدة أن تحط من مستواها حتى يوافق مستوى قرائها. بالعكس، يجب على الجريدة أن ترتقي بمستواهم وأن تساعد على انتداب عمال متقدمين من صلب فئة العمال المتوسطين. فأولئك العمال وقد انغمسوا في النشاط العملي اليومي

واهتموا أساسا بأحداث الحركة العمالية وقضايا التحريض المباشرة، إنما يجب أن يربطوا كل نشاط من نشاطاتهم بمجمل فكر الحركة البروليتارية الروسية، بمهماتها التاريخية وبهدف الاشتراكية الأساسي. فعلى هذا النحو، تربط الجريدة، التي معضم جمهور قرائها عمال متوسطون، الاشتراكية والنضال السياسي بكل قضية محلية وضيقة. وأخيرا، بعد فئة العمال المتوسطين، هنالك الجماهير التي تؤلف أدنى فئة من البروليتاريا. ومن الممكن جدا أن تكون جريدة اشتراكية غير مفهومة تماما، أو تقريبا كذلك، عند هذه الفئة (فحتى في أوروبا الغربية نجد عدد ناخبي الاشتراكيين-الديمقراطيين يفوق بكثير عدد قراء الصحافة الاشتراكية-الديمقراطية). لكن سيكون من الغباء أن نستنتج من ذلك أن على جريدة الاشتراكيين-الديمقراطيين ان تلائم أدنى مستوى ممكن عند العمال. فالأمر الوحيد الذي يمكن أن نستنتجه من ذلك هو أن نمارس عدة اشكال من الدعاية والتحريض في صفوف هذه الفئة (كراسات محررة بلغة شعبية بسيطة، تحريض شفوي، وبالأخص كراسات حول الأحداث المحلية). ولا يجب أن ينحصر نشاط الاشتراكيين-الديمقراطيين في ذلك. فأكبر الاحتمالات أن تكتسي أول خطوة لإيقاظ وعي الفئة الدنيا من البروليتاريا شكل نشاط تثقيفي علني. وإنه لأمر في غاية الأهمية أن يستخدم الحزب هذا النشاط، وأن يوجهه في الاتجاه الأكثر ضرورة، وأن يرسل عمالا، بطريقة قانونية، ليهؤوا مجالات جديدة لنشاط المحرضين الاشتراكيين-الديمقراطيين. والتحريض في صفوف الفئة الدنيا من البروليتاريا يوفر، بطبيعة الحال، أوسع مجال لخصائص المحرض الشخصية، ولخصائص الجهة، والنقابة المعنية، الخ. لقد قال كاوتسكي، في كتابه ضد برنشتاين: "لا يجب الخلط بين التكتيك والتحريض. يجب تكييف طرق التحريض مع الظروف الشخصية والمحلية. يجب أن يسمح لكل محرض أن يختار طرق التحريض مما اكتسب. فيمكن لهذا المحرض أن يثير انتباها كبيرا بحماسته، وثان بسخريته اللاذعة وثالث بقدرته على إثارة الكثير من التتبعات، الخ. ومثلما يتكيف التحريض مع المحرض، فإنه يتكيف أيضا مع الجمهور. فإن خطب المحرض فلكي يفهمه الجمهور. لذا، يجب أن تكون نقطة بداية الحديث أمرا معلوما جيدا عند الجمهور. وكل ذلك بديهي ولا ينطبق فقط على التحريض في صفوف الفلاحين. فيجب أن تكون مخاطبة أصحاب الحرف غير مخاطبة البحارة، ومخاطبة البحارة غير مخاطبة عمال الطباعة.

يجب أن يكون التحريض ذا طابع شخصي. لكن تكتيكنا ونشاطنا السياسيين يجب أن يكونا موحدين" (س. 2-3). هذه الكلمات لممثل بارز لنظرية الاشتراكية-الديمقراطية، تحتوي تقييما رائعا للتحريض كجزء من النشاط العام للحزب. تماما كما تبين هذه الكلمات كم أن مخاوف أولئك الذين يعتقدون أن تأليف حزب ثوري لقيادة النضال السياسي سيدفع نحو ترك التحريض جانبا وسيقلص من حرية المحرضين، هي مخاوف لا أساس لها. بالعكس، لا يمكن إلا لحزب منظم أن ينجز تحريضا واسع النطاق، وأن يوفر ما يلزم المحرضين من توجيه ومواد تخص جميع القضايا الاقتصادية والسياسية، وأن يستفيد من كل نجاح تحريضي محلي لتعليم جميع العمال الروس، وأن يرسل المحرضين إلى تلك الأماكن وفي تلك البيئة حيث يمكنهم العمل بأكبر قدر من النجاح. فقط في الحزب المنظم تستطيع العناصر التي تمتلك المؤهلات للنشاط كمحرضين أن تكرس حياتها بأكملها لهذه المهمة - لصالح التحريض وغيره من النواحي الأخرى في النشاط الاشتراكي-الديموقراطي. من هذا يتبين أن من ينسى التحريض الدعاية السياسيين بسبب النضال الاقتصادي، ومن ينسى ضرورة تنظيم حركة البروليتاريا في نصال حزب سياسي، فإنه، وبغض النظر عن كل أمر آخر، إنما يحرم نفسه حتى من فرصة اجتذاب الفئات الدنيا من البروليتاريا إلى قضية البروليتاريا بنجاح وثبات. لكن مثل هذه المبالغة في جانب واحد من أنشطتنا على حساب الجوانب الأخرى، وحتى الرغبة في إغفال الجوانب الأخرى، إنما هي محفوفة بعواقب وخيمة على حركة البروليتاريا الروسية. بل إن الفئات الدنيا من البروليتاريا قد تصاب بالإحباط بسبب افتراءات من قبيل أن مؤسسي الاشتراكية-الديموقراطية الروسية يريدون فقط استخدام العمال لإسقاط الأوتوقراطية، من خلال الدعوات ليقتصروا على استعادة الأعياد والنقابات المهنية، دون الاهتمام بالأهداف النهائية للاشتراكية والمهام الفورية للنضال السياسي. قد يقع (وسيظل) هؤلاء العمال دوما في فخ أية خدع تقدمها الحكومة أو البرجوازية. قد تقع الفئات الدنيا من البروليتاريا، أي العمال غير المتطورين، تحت تأثير تبشير جريدة «فكر العمال»، ضحية للفكرة البرجوازية والرجعية للغاية ومفادها أن العامل لا يمكنه ولا يجب عليه أن يهتم بأي شيء سوى زيادة الأجور وإعادة الأعياد ("مصالح اللحظة")، وأن العمال يستطيعون ويجب عليهم أن يديروا نضال العمال من خلال جهودهم

الخاصة وحدها، من خلال "مبادرتهم الخاصة"، دون محاولة دمجها بالاشتراكية، وألا يسعوا إلى تحويل حركة البروليتاريا إلى قضية أساسية متقدمة للبشرية جمعاء. لذا، نكرر أن مثل هذه الفكرة قد تحبط معنويات العمال الأكثر تأخرا. لكننا على ثقة من أن العمال الروس المتقدمين، أولئك الذين يوجهون حلقات التثقيف العمالية وكل النشاط الاشتراكي-الديموقراطي، أولئك الذين يملأون اليوم سجوننا وأماكن نفينا، (من محافظة رئيس الملائكة إلى سيبيريا الشرقية)، أن هؤلاء العمال سيرفضون مثل هذه النظرية بسخط. إن اختزال الحركة بأكملها في مصالح اللحظة يعني المراهنة على الحالة المتأخرة عند العمال، يعني تلبية أسوأ ميولهم. إنه يعني قطع الصلة بين الحركة البروليتارية والاشتراكية بصورة مصطنعة، بين النضالات السياسية المحددة بالكامل للعمال المتقدمين والمظاهر العفوية للاحتجاج من جانب الجماهير. وبالتالي، فإن محاولة جريدة «فكر العمال» إدخال اتجاه خاص تستحق اهتماما خاصا وتدعو إلى احتجاج قوي. طالما أن جريدة «فكر العمال»، وهي تكيف نفسها، على ما يبدو، مع الفئات الدنيا من البروليتاريا، وتتجنب بصلف قضية هدف الاشتراكية والنضال السياسي النهائي، دون أن تعلن اتجاهها الخاص، فإن العديد من الاشتراكيين-الديموقراطيين قاموا بإيماءة برؤوسهم فقط، آملين أن يتخلص أعضاء مجموعة «فكر العمال» من ضيقهم خلال تطور عملهم وتوسيع نطاقه. لكن، عندما بدأ الناس الذين، حتى الآن، أدوا العمل اللازم لمستوى تحضيري بحثا عن نظريات انتهازية على الموضة ويصمون آذان أوروبا بالاعلان عن نيتهم وضع الاشتراكية-الديموقراطية الروسية بأكملها في مستوى تحضيري طيلة سنوات عديدة (إن لم يكن ذلك إلى الأبد)، بعبارة أخرى، عندما يشرع الأشخاص الذين ما زالوا حتى الآن يعملون بشكل مفيد على ملإ برميل عسلا، و"على مرأى من الجمهور"، في إتلاف ذلك البرميل بصبات من القطران، فعندها يكون الوقت قد حان كي نقف على نحو حاسم ضد هذا الاتجاه القهقرى! لقد اعترفت الاشتراكية-الديموقراطية الروسية، من خلال مؤسسيها وأعضاء فرقة «تحرير العمل» ومن خلال المنظمات الاشتراكية-الديموقراطية الروسية التي أسست حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي الروسي، دوما بالمبدأين التاليين: 1) جوهر الاشتراكية-الديموقراطية هو تنظيم نضال البروليتاريا الطبقي قصد كسب السلطة السياسية، ونقل جميع وسائل الإنتاج إلى

المجتمع ككل، والاستعاضة عن الرأسمالية بالاقتصاد الاشتراكي. 2) مهمة الاشتراكية-الديموقراطية الروسية هي تنظيم حزب البروليتاريا الثوري الروسي الذي يهدف مباشرة إلى إسقاط الأوتوقراطية والظفر بالحرية السياسية. وكل من يبتعد عن هذين المبدأين الأساسيين (اللذان صيغا بدقة في برنامج فرقة «تحرير العمل» وتجسدا في بيان حزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي) إنما يغادر الاشتراكية-الديموقراطية.